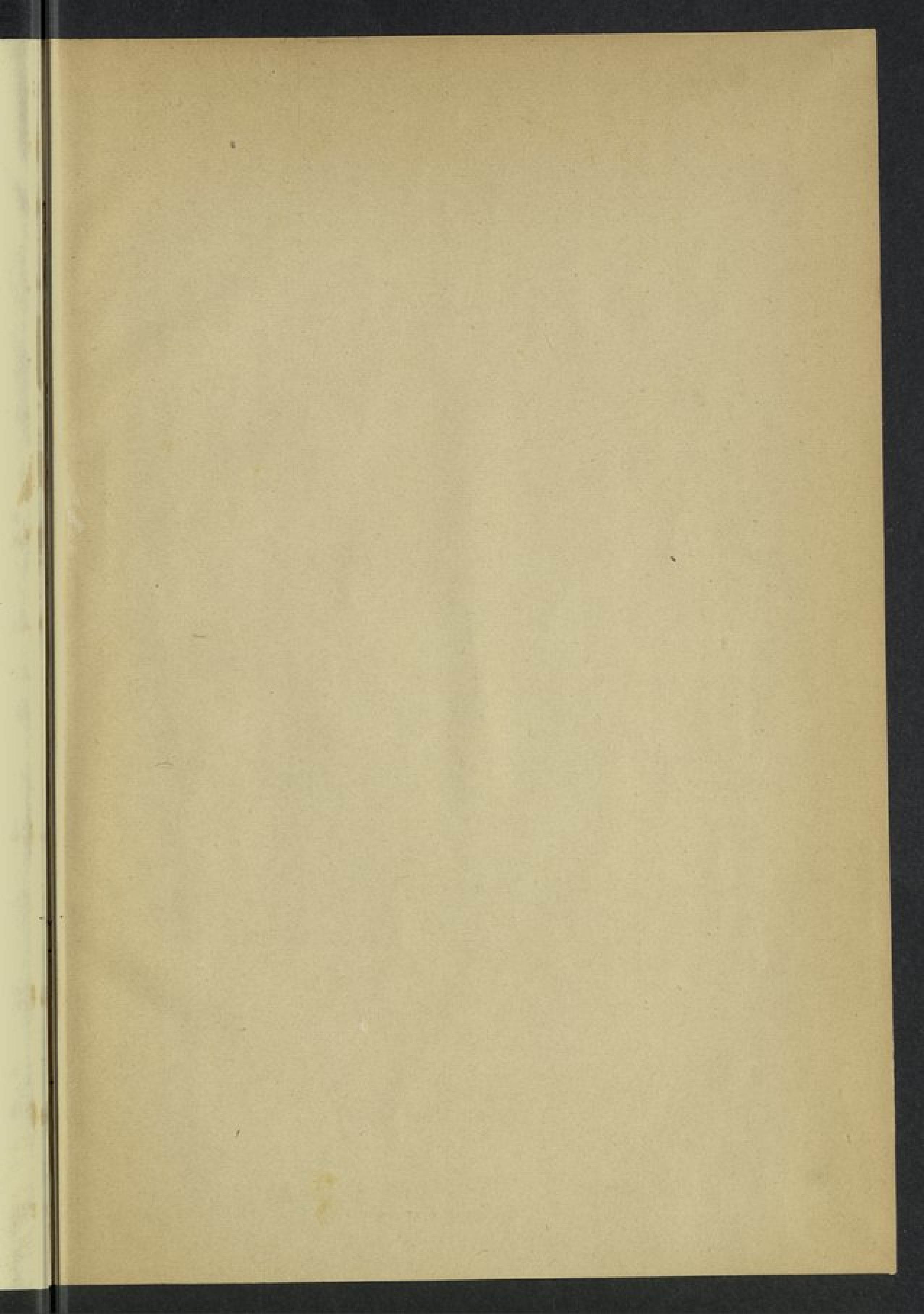
ملخص ترجمة البطريرك غريغوريوس الحداد

العارف



ملخص ترجمة

العلّامة

الطيب العين والاثر غريغوريوس الرابع الحداد

بطريرك انطاكية وسائر المشرق المروم الارثوذكس

اجزل الله ثوابه

بقلم

عيسى اسكندر المعلوف

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق ومؤلف تاريخ الأسر الشرقية العام

جمعت فيه لمعة من سيرته البارّة ومزاياه الطاهرة واعماله المجيدة في درجاته الثلاث شماساً واسقفاً و بطريركاً واشرت الى اشياء قليلة من خطبه ورسائله الكثيرة البليغة وشعره الرائق · واسترسلت الى انتخاب بعض اقوال المشاهير والصحف والشعراء في تأبينه ووصفه مما يمثل صورة معنوية لغبطته مصغرة من صورة مكبرة له تحتاج الى مجلد كبير يضم شتات ذلك الشيء الكثير الذي اشتهر به وتناقلته الصحف وصدعت به الخطباء في الشرق والغرب لان ما لا يدرك كله لا يترك جله

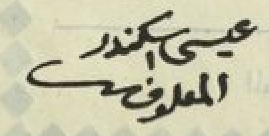
المطبعة الادبية : بيروت * سنة ١٩٢٩

المقدمة

ان مرافقتي لهذا الحبر القديس نحو اربعين سنة من آخر ايامه شماساً الى آخر عهده بطريركاً ولا سيما في مدرسة كفتين التي جدَّد معالمها وفي مدينة دمشق . ووقوفي على اعماله ومساعيه ونياته الطيبة حملني (وقد مضى على وفاته سنة ولم تجمع مراثيه ولا نشرت له ترجمة على حدة) ان ادوّن له ترجمة مطوّلة واجمع له المراثي التي وقفت عليها مع اقوال الصحف في تأبينه — وكنت احب ان اضيف اليها ما كنت قد جمعته من المدائح واقوال الصحف فيه منذ اسقفيته الى رجوعه من روسية ولكن احدى جمعيات طرابلس الشام طلبت ذلك مني بواسطته لنشرها في مجموعة على حدة ولم ارَها بعد ذلك ولا اعيدت الي مع الحافي بطلبها — فاكتفيت بما وصلت اليه يدي وما وقفت عليه من مسودات قصائده و بعض رسائله التي عندي منها كثير التحفني بها في اوقات مختلفة لاغراض متنوعة . واقتصرت على هذه الترجمة المختصرة انشرها الان تذكاراً لمرور سنة على فاجعة الشرق بهِ ملخصة من الترجمة المطوّلة التي دوّنت فيها ما تهمُّ معرفته عنهُ . تاركاً طبع المجموعة المطوّلة مع مراثيه واقوال الصحف فيه الى من اعلن ذلك وتكفَّل بهِ بامر سيادة قائم المقام البطريركي ولعلي في ما كتبت على هدىً ان شاء الله

رحم الله نفس فقيد الشرق المغبوط عداد حسناتهِ المدرارة واعماله البارَّة بمنه و كرمه

زحلة (لبنان) في ٢٩ ت ٢ ش و ١٢ ك ١ غ سنة ١٩٢٩

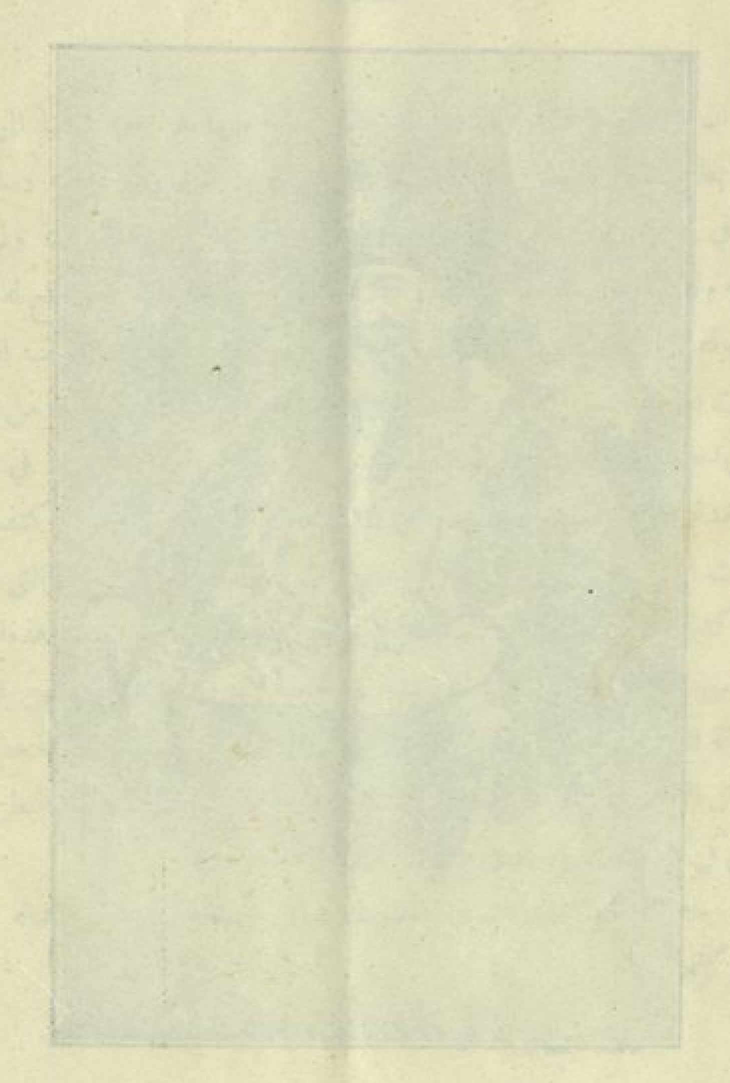


عيسى اسكندر المعلوف

رسمه وهو بطريرك بعد عودته من روسية



غريغوريوس البطريرك لك الهنا   بنعيم خلد في جوار الباري
ثاني الاقمار تسمية لقد   مثلت مجد ثلاثة الاقمار



آل الحداد [1]

اسرة عربية المحتد من مدينة اذرع الحورانية نزح اجدادها الاولون سنة ١٥٥٤م على اثر الفتح العثماني وانتشار الامن الى سورية المجوفة (البقاع و بعلبك) فنزلوا قرية (الفرزل) شرقي مدينة زحله وتديروها بضع عشرة سنة وكان زعيمهم شرفان بن داود الحداد واولادهُ السبعة وهم داود وسليمان ومشرف وشاهين وعيسى وعبس ودرويش . وله حفدة وابناء عم . وكانت صناعة بعضهم الحدادة والآخرين الفروسية والصيد والتنزُّه فحدث بين بعضهم ومقدمي الفرزل خلاف على جواد مطهَّم كان عند درويش الحداد افضى الى تشتت شملهم في انحاء لبنان فقصدوا قصبة (بسكنتا) في سفح جبل صنين وراء مدينة زحلة سنة ١٥٧٠م ومن هناك تفرقوا باسم (الحداد) والآخرون باسم (الرياشي) والبعض باسم (مسلّم) ومنهم من سمي (الصائغ) منتشرين في انحاء البلاد باسماء اخرى !

ومن (بسكنتا) نزح جدٌ الى جهات (الغرب) في لبنان واستقر نسلهُ في عبيه ومن سلالته فقيد الشرق البطريرك المنوَّه بذكرهِ الا ن ولقد نبغ من هذه الاسرة الحدادية وفروعها كثير من العلماء والادباء والكتاب والشعراء والخطباء والصحافيين والاطباء والاداريين والاعيان والاساتذة كما نبغ كثير من الروساء الدينيين والرهبان والكهنة ولقد فصلتُ ذلك في (تاريخ الاسر) وفي مجلة (النعمة) البطريركية في دمشق وغيرها

فمن مشاهير آل الحداد في عبيه الخوري اغابيوس بن سعد الحداد الصباغ وكان

---

(١) ملخصة من كتاب (الاخبار المدونة والمروية في انساب الاسر الشرقية) ومن كتاب (العقد الثمين في اعيان القرن العشرين) لمؤلفهما عيسى اسكندر المعلوف كاتب هذه الترجمة

من الجرأة والحزم على جانب عظيم وقى بهما جماعته في اشد المواقف حراجة في الحوادث المندفعة وطنوس الياس الحداد الذي خدم محكمة قضاء الشوف بغيرة وحمية وشقيقه حبيب الذي تعاطى ايضاً المحاماة عن حقوق طائفته وكان حسن الخط والعقل والسلوك واولاده كلهم نالوا قصب السبق على رفاقهم في الوظائف والاعمال التي وكلت اليهم في القطر المصري وهم الياس ورشيد وامين واسكندر الذي خدم بمصلحة الجيش المصري واحيل على التقاعد. ومن علمائهم القسان الانجيليان مراد ضاهر بطرس الحداد وابرهيم شديد باز الحداد واولادهما. وامين افندي نخله الحداد والصيدلي سليم افندي شبلي الحداد وغيرهم

وعلى الجملة فان الفقيد اخبرني سنة ١٩١٤ ان من عدد المكلفين القاطنين من آل الحداد في عبيه ٧٩ من الذكور و٦٧ من الاناث عرفوا بالادب وتحصيل العلم فهم يخدمونه

نشأة البطريرك

سيذكرني قومي اذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ

فمن آل الحداد الذين في قصبة (عبيه) الشهيرة بتاريخ امراء الغرب نشأ هذا البطريرك وهو غنطوس بن جرجس بن غنطوس بن نعمه بن الياس من فروع الحدادين في عبيه وكانت المرحومة والدته هند ابنة عساف سليم من كفرشيما (لبنان) قرية المشاهير كاليازجيين وبني الشميل ونقلا والشدودي وغيرهم واسرتها من بني (الحرّان) الحوارنة في كوسبا اشتهرت في كفرشيما باسم احد اجدادها (سليم) وكان والدا الفقيد تقيين فاضلين. فولد في عبيه في اول تموز حساباً شرقياً سنة ١٨٥٩ م وكانت عبيه مقرّ النهضة العلمية في لبنان التي اضرم جذوتها المرسلون الاميركيون بتأسيس اول مدرسة داخلية فيها تخرج بها كثير من علماء بلادنا ومشاهيرها فدخل البطريرك مدرسة عبيه وهو في الثانية عشرة من عمره فدرس فيها ورفيقه الاستاذ العلامة صديقنا جبر افندي ضومط الشهير بآدابه وبرع البطريرك

بالعلوم اللغوية والرياضية فكان ممتازاً بين زملائهِ الطلبة وقد رآهُ الاستاذ ضومط ينسخ كتاب (الفلسفة الطبيعية) ليتعجّل قراءته قبل ان يبدأ بدرسه قانونياً [١] وهو عنوان الاجتهاد والذكاء

وبعد سنة اضطرَّ ان يترك عبيه منحدراً الى بيروت وذلك نحو سنة ١٨٧١ فاتصل بالطيب الذكر المطران غفرئيل شاتيلا الدمشقي مطران بيروت ولبنان الشهير بتقواه وغيرته فرافقه واكتسب من فضائله ما اكتسب كما كان يحدثني مفتخراً بانه معلمه ومهذبه فادخله سيادته مدرسته الاكليريكية التي انشأها فدرس على العالم المرحوم شاهين عطيه اللبناني وغيره وكان نابغة في دروسه وآدابه وسنة ١٨٧٥ اتخذهُ المطران غفرئيل كاتباً لديه فبدأت حياته العلمية وبلاغته الانشائية تظهر في مخاطباته ومكاتباته ثم ترهب في دير النورية باسم غريغوريوس وذلك بعد سنتين من تاريخه فكان مثال الفضيلة والتقوى ثم سامه شماساً بعد سنتين ايضاً اي سنة ١٨٧٩ فاخذت مواهبه تظهر في اعماله وكان ممن ساعد (جمعية التعليم المسيحي الارثوذكسي) في بيروت بانشاء جريدة الهدية الصغيرة وله فيها مقالات رائعة ومباحث شائقة لم يظهر فيها اثر لنعرة دينية ولا لخلاف طائفي مدة تحريرها فبقي فيها من سنة ١٨٧٩—١٨٨٨ في سنتها السادسة فتركها وكان من زملائه في كتابة مقالاتها المرحوم يوسف الترزي وصديقنا الاستاذ الشيخ رشيد نفاع فدخلت في عهدتهما فقط

وولي عن مخدومه ومعلمه نيابة جمعية القديس بولس الرسول في بيروت فادار شؤونها ورقاها بمواظبته وارشاده وحسن سيرته

ولما كان كتاب (البوق الانجيلي) الذي ترجمه عن اليونانية المطران اثناسيوس المخلع الدمشقي مطران بيروت لمؤلفه الشماس مكاريوس معلم مدرسة بطمس من

---

١) راجع مجلة الكلية البيروتية (٤:٥ ٢١٥) ومجلة النعمة الدمشقية (٥:٤٧) سنة ١٩١٣ وكان من اساتذته استاذنا المرحوم المعلم خليل المعلوف من كفر عقاب والد الدكتور شكري المعلوف

الكتب النفيسة سعى غريغوريوس بطبعه ووقف على اصلاحه وضبطه فطبع الجزء الاول منه سنة ١٨٨٩ في ٤٨٢ صفحة متضمناً ٢٦ عظة

والجزء الثاني في ٣٦٣ صفحة مذيلين بفهارس وفي اولهما مقدمة بقلم الفقيد بليغة تبين حالة الكتاب وما تقلب عليه وقد تصرف في بعض مواضع منه بما يوافق حالة العصر معتمداً على نسخة بخط المترجم الجميل فرغ منها في القسطنطينية ختام سنة ١٧٨٠ م لا تزال في خزانة الدار الاسقفية في بيروت رأيتها اخيراً بمجلد ضخم وقد قرضها السوس

واصلح بعض مطبوعات كانت تنشرها مطبعة القديس جاورجيوس الارثوذكسية من كتب و كراريس ومناشير وغيرها . وقد جددت هذه المطبعة بمساعيه الحسان خدمة للعلم

و كان يلقي عظات نفيسة بفصاحته وبلاغته المعلومة مما نشر في الهدية مثل تأبين المرحوم حبيب بسترس المعروف بالصغير المتوفى سنة ١٨٨٦ عن ٦٥ سنة وغيره

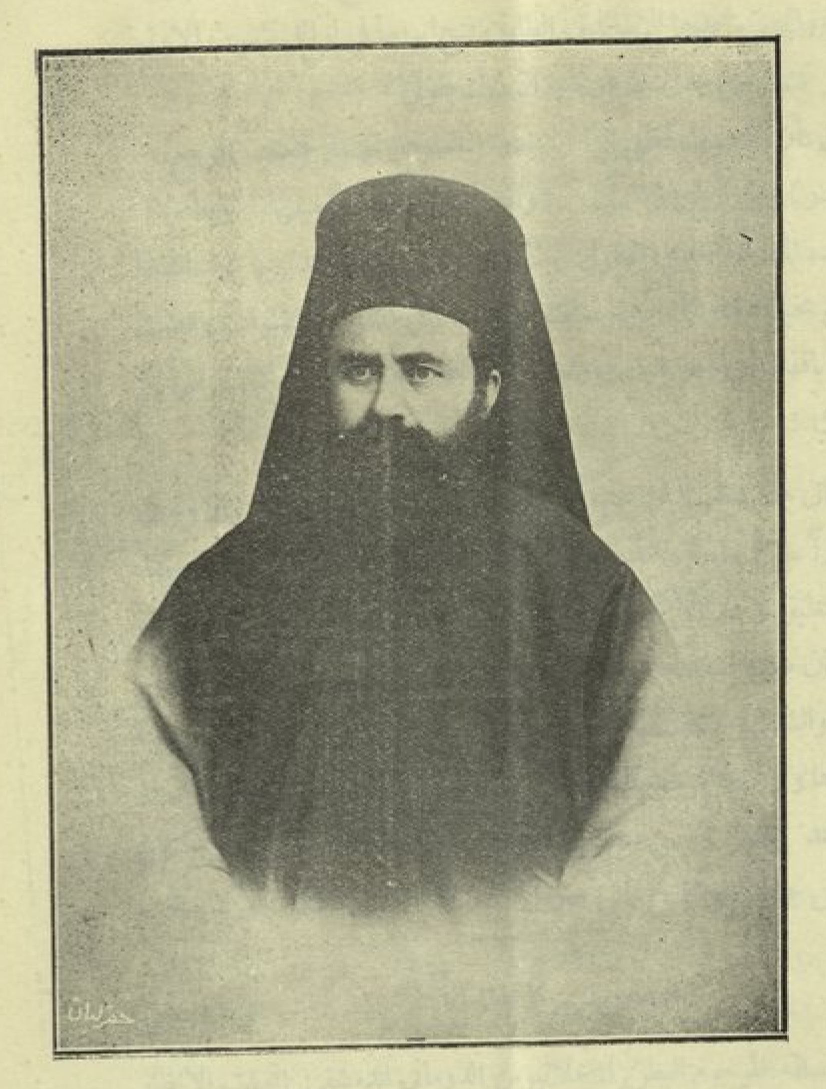
ودرس على نفسه اليونانية مستعيناً بعمله وبالارشمندريت خريستوفوروس جباره و كذلك الروسية تلقن مبادئها على معلم وتوسع بالعلوم الدينية والفلسفية . ودرس على العلامة الشيخ يوسف الاسير الفقه الاسلامي وامتاز بعلم الفرائض حتى كان حجة فيه

اسقفيته على طرابلس الشام

ولما كانت فضائله باهرة في اعماله ببيروت ولبنان وآدابه معلومة مثل تقواه وغيرته انتخب لاسقفية طرابلس في ١٦ ايار سنة ١٨٩٠ بسيامته قساً وبعد اربعة ايام سيم اسقفاً فدخل طرابلس والخلاف في طائفته مستفحل بحوادث اسقفها المرحوم سلفه صفرونيوس النجار الدمشقي ووكيله المرحوم اغابيوس صليبا مطران اداسيس فمهد سبيل المسالمة بحكمته ناشراً راية الوفاق وموثقاً عرى المصافاة فألف القلوب ووفق الآراء فاصلح ذات البين واشتهر بحبه للسلام

واول ما افتكر به من الاصلاح تجديد مدرسة دير كفتين (في مشارف طرابلس

رسمه وهو مطران طرابلس



الى اهلي اسوق الآن رسمي ليبقى بينهم تذكار حبي
ونفسي قد وقفتُ على ولاهم ورسمي شاهدٌ زكاه قلبي

«من نظم الفقيد»

فوق المعيصرة) التي كانت لجنة طائفية قد اسستها وادارتها بضع سنوات فتعطلت .
فاصلح المدرسة والدير واعدها للاساتذة والطلبة وفتح ابوابها في اوائل تشرين الاول
سنة ١٨٩٣م وكنت من مدرسيها فارختها اذ ذاك بقولي :

(كفتين) ان كان الخسوف قضى على بدر العلوم بها فنعم المرجعُ
قد عاد (بدر) العلم ارخ (زائداً) والبدر عادتهُ يغيبُ ويطلعُ

فبقيت هذه المدرسة تغذي العقول برئاسة مجددها وعناية مديريها واساتذتها
الذين كانوا من نخبة العلماء فتخرج فيها مئات من الشبان في اثناء اربع سنوات وقضت
الشؤون المالية باقفالها في آخر الرابعة . ونوى تجديدها سنة ١٩٠٤ كما كتب اليَّ فلم
يتوفق الى ذلك

وهكذا كان هذا الحبر البار مجتهداً في تحسين المدارس والكنائس والاوقاف
والارشاد غيوراً على مصلحة طائفته محترماً غيرها من الطوائف مراعياً حقوقها مكباً
على المطالعة والتعليق وجمع الآثار العلمية والادبية مجاهداً في سبيل اعادة البطريركية
للوطنيين كما كان معلمه اسقف بيروت يطالب هذه الامنية ويسعى في تحقيقها مع
بعض الاساقفة والشعب . وكانت له مجالسات ادبية ومناقشات علمية مع علماء مدينة
طرابلس وغيرها ولا سيما المرحوم العلامة الشيخ حسين الجسر والد سماحة الاستاذ
العالم الشيخ محمد الجسر رئيس المجلس النيابي في بيروت فذاعت شهرته حتى كان
محباً ومحبوباً من جميع الطوائف والملل محترماً كبير المقام لدى الحكومة وكبار القوم .

انتخابه بطريركاً انطاكياً

ولما توفي سلفه المرحوم البطريرك ملاتيوس الدوماني الدمشقي اتجهت الانظار
الى المطران غريغوريوس فانتخب بطريركاً واحتفل بسيامته في الكنيسة المريمية
الكبرى في دمشق صباح الاحد في ٢٦ آب سنة ١٩٠٦ فتسلم عصا الرعاية بحق
واحتفال عظيم كما ذكرت الصحف وخطب السادة المطارنة ولا سيما مطراني بيروت

ولبنان معددين مآثر غبطته وفضائله متوقعين رفع شأن الملة بدومه

وكان البطاركة الثلاثة المسكوني (القسطنطيني) والاسكندري والاورشليمي حتى سيامته لا يعترفون بالانتخاب الشرعي لبطريركية انطاكية التي خرجت من يدهم بسعي الاساقفة وفي مقدمتهم غبطته . فلم يطل المقام حتى بعثوا اليه برسائل الشركة معهم معترفين ببطريركيته ومثنين على مناقبه السامية وفضائله الشهيرة ومعارفه الواسعة . فكان معيداً بحسن سياسته مياه الاتفاق الى مجاريها ومواليا الكنائس الارثوذكسية الاخرى برسائله البليغة ومفاوضاته المفيدة وغيرته الرسولية ومشاركته الروحية

فعقد المجامع في زمن بطريركيته في السنوات ١٩٠٧و ١٩١٠و١٩١٣و١٩٢١و ١٩٢٣و١٩٢٨ وكان عددها ستة ودارت فيها ابحاث مهمة بشأن ترقية الطائفة ومدارسها واديارها وكنائسها واوقافها وانشأ مجلة النعمة الشهرية لسان البطريركية الانطاكية اسوة ببقية البطريركيات وجلب لها (مطبعة) جميلة الحروف متقنة الادوات وكنت ممن ساعدوه في انشائها لانني عينت مدير المدارس الارثوذكسية اذ ذاك في دمشق فكتبت مقالاتها العلمية والتاريخية ونشرت فيها تعريف كثير من المخطوطات وتراجم المشاهير ونحوها مما هو مبثوث في تضاعيف مجلداتها الستة من سنة ١٩٠٩ — ١٩١٤

وارسل الطلبة الى الجامعات الكبرى في روسية وبلاد اليونان ورومانية والاستانة لتلقن العلوم الدينية واللاهوتية فتخرج فيها كثير من اساقفة اليوم ورؤساء الاديار والكهنة والرهبان . وعدد من سامهم منهم تسعة اساقفة لانطاكية . واسقف انتخب لاكسوم في الاسكندرية وهو العاشر فضلاً عن الصحافيين والاطباء والكتبة والاداريين

وجدد مدرسة البلمند التي كان يعتني بمراقبتها وهو اسقف طرابلس بعهد سلفه المرحوم الدوماني وانشأ مدرسة انطاكية في شمالي سورية ورقاها بعنايته

واسس الجمعيات الخيرية وعاضدها في بيروت وطرابلس ودمشق وبعض انحاء

البطريركية ورمم بعض الاديار وجرّ اليها المياه ولا سيا دير صيدنايا وطاف في الرعية وتفقد شؤونها واصلح ما امكن اصلاحهُ فيها

وانار الدار البطريركية في دمشق بالكهرباء وجدد بعض غرفها ورتب خزانة كتبها بفهارس تسهل مراجعتها بارقام ورفوف

وسار الى روسية بدعوة قيصرها نقولا الثاني فنال منزلة كبيرة لدى القيصر والروسيين وذلك سنة ١٩١٣ حتى قرر اعضاء المجمع الروسي عدم لبس الاساقفة وارباب الرتب (التاج) اكراماً لغبطته فلا يلبس التاج غيره واستقبل في اودسه استقبالاً دينياً وسار الى بطرسبرج باحتفال عظيم وامامه (عصا البطريركية)

وقابل القيصر ضيفه البطريرك على مثال مقابلة القياصرة البزنطيين وبطاركة القسطنطينية قبلاً فلبس البطريرك الوشاح الملوكي (المثّية) والقيصر بزته الرسمية. وانزل في دير القديس نفسكي العظيم وكان يجلس في الاحتفالات على عرش ذهبي وارسلت الى موسكو حلة بطريركية ذهبية ثمينة جداً ليلبسها غبطته

وسار الى بطرسبرج (لينينغراد) في العربة القيصرية تجرها اربعة من جياد الخيل الى دير اللافرا فخطب لديه السيد انطونيوس رئيس اساقفة فالينا. فاجابه غبطته بالعربية واخرجوا اول مرة صليباً مرصعاً بالالماس من متحف اللافرا ليسير حامله امام البطريرك في احتفالاته

وكان يرتدي بالحلة الاسقفية التي اهداها اليه القيصر ويقول معظم الاعلانات بالعربية وبعضها بالسلافية واليونانية

واحتفل في ٦ اذار سنة ١٩١٣ باليوبيل الملكي في كاتدرائية سيدة قازان فجلس البطريرك على منصة والى يمينه جلالة القيصر مع اسرته والى يساره جمهور الاكليروس فبدأ بصلاة الدعاء باليونانية وقرأ الانجيل بالعربية [1]

---

(١) اعترضت مجلتا البطريركيتين القسطنطينية والاسكندرية منتقدة غبطته في تلاوته معظم الاعلانات والانجيل بالعربية واجابته بالعربية على الخطب المقدمة له مع انه يعرف اليونانية ويراسلهم بها

وفي ١٩ اذار قابل غبطته جلالة القيصر مقابلة رسمية في قرية تسار سكويه تسيلو فاستقبله هو والامبراطورة بحفاوة عظيمة نصف ساعة . فقال له القيصر : « انني احب الوقوف على شؤون الكنيسة الانطاكية شقيقتنا في الايمان وابذل ما في الوسع لاعانتها راجياً ان تطلعوني على حوادثكم وحاجاتكم وانا اصغي اليكم »

فسرد له غبطته حالة الكنيسة الانطاكية وشؤونها . فانعم على غبطته بوسام القديس الكسندر نفسكي من الدرجة الاولى و بنوط (مدالية) اليوبيل وبصليب الماسي ليضعه على قلنسوته وهذا لا يهديه الا لمن يحسن الخدمة من رؤساء الكهنة في روسية فبقي واضعاً اياهُ على قلنسوته في بلادنا بعد رجوعه وانعم على حاشيته باوسمة وانواط

وفي ١٦ نيسان سنة ١٩١٣ ودّع غبطته القيصر والقيصرة ليعود الى كرسيه بعد ان يطوف اهم المدن الروسية فشُيّع باكرام وكان في طوافه مظهر التكريم والاجلال ولقد صورته الصحف الروسية بجميع الاستقبالات والحفلات وكتبت عنه المقالات البديعة فترك روسية عائداً الى الوطن فوصل بيروت في ١٨ حزيران من تلك السنة وعاد الى دمشق

ولما نشبت الحرب الكبرى كان غبطته مرجعاً للفقراء والمعوزين وتسلية للجياع والمنكوبين فكان يطوف احياناً مع شماسه وقواسه يجمع المطروحين في الازقة الى دارهِ البطريركية والمدرسة التي تقابلها و يعتني باعالتهم و كثيراً ما كان يطعمهم بيدهِ غير ناظر الى مللهم ونحلهم واجناسهم مستديناً المال لذلك

ومما يؤثر عنهُ ان الراهبة التي تطعم المنكوبين جاءت اليه ذات يوم متشكية من عدم امكانها ان تعول الجميع لقلة الطعام و كثرة الآكلين وتوسلت اليه ان يقتصر على ابناء ملته الارثوذكسية فقط فاجابها « غداً نرسل اليكِ الخبز وقد كتب على كل رغيف اسم آكلها ومذهبه فاطعمي كلاً ما يخصه » . وفي اليوم الثاني جاء الخبز كالعادة فتعجبت من ذلك وذهبت اليه تذكّرهُ بوعدهِ فقال لها « يا ابنتي ان الله اعطانا الخبز لناكله دون نظر الى مللنا واجناسنا فلنبذله للجميع » فخجلت وعادت

ادراجها تطعم الجميع مما يصل الى يدها من المآكل . ولذلك قال الشيخ عبد الرحمن قريطم البيروتي يمدح البطريرك في ديوانه المطبوع الصفحة ٣١ من قصيدة :

ومعجزة المسيح بدت قديماً بمائدة وحيَّرت العقولا
فبشرى الأُولى نزلت عليهم ومن قد شاهدوا عيسى الرسولا
ولو جاءت لنا في الحرب يوما بحوتٍ واحدٍ حازت قبولا
ولكن ناب هذا البحر عنها ابو الفقراء من اضحى وكيلا
صفاتٌ كلها غرٌ حسانٌ ولستُ ارى لها ابداً مثيلا

وهكذا بقي هذا الحبر المفضال مجاهداً في سبيل الانسانية يؤاسي كل من يقصدهُ غير ناظر الى اصله وفصله يشهد بهذا غبطة السيد دميانوس البطريرك الاورشليمي الذي نفي في الحرب الى دمشق وحلّ ضيفاً في بيت خاص فاستدان الفقيد له اموالاً بقيت في ذمته الى ايام قبل موت البطريرك زميله الانطاكي . ولقد اعتنى بالمرحوم الموسيقي شكري السودا حتى توفي في دمشق اثناء الحرب واحتفل بجنازته في كنيسة الموارنة

ولما اتهم الزحليون بالجمعية العربية بذل الاموال والوصايات في سبيل اطلاقهم بدون اهمال الى كثيرٍ من امثال هذا ولا سيما مساعدته الروسيين المنكوبين في بلادنا

ولما أُصيب قبل وفاته بسنة بضعف بصرهِ واجريت له العملية الجراحية كانت حفاوة الاميركيين به في بيروت دالة على عظم منزلته مما يسجله لهم التاريخ بالتبر على صفحات الدهر . فكان شكوراً صبوراً

وبينما كان يوشك ان يختم المجمع السادس الاخير في سوق الغرب استأثرت به رحمة بارئه وهو يقوم بواجباته الرئيسية دون تضجر او مالٍ مع انحراف صحته وضعف بصرهِ يوم الاربعاء في ٢٩ ت٢ و ١٢ ك١ سنة ١٩٢٨ ونقل جثمانه الطاهر بموكب نادر المثال الى بيروت ثم الى دمشق حيث دفن فيها في مدافن البطاركة امام الكاتدرائية المريمية

اما الحفلات التي اقيمت له في الوطن والمهجر ومشاركة جميع الملل لطائفته بوفاته وما ذكرته عنه الصحف وما وصفه به المؤبنون فنتركه الى فرصة اخرى وكل منا طالع ذلك وشهده وسمع به فالسنة الخلق اقلام الحق لان احتفاء الملل على اختلافها بتكريمه دليل ما له في القلوب من المكانة الكبرى

آثاره العلمية والادبية

عرفتُ هذا الحبر كلفاً بجمع الكتب المفيدة ولا سيما المخطوطات والاوراق النادرة فانشأ خزانة كتب في بيروت جمع فيها النفائس وكذلك فعل في داره الاسقفية في طرابلس وفي بعض الاديار من اول عهده كدير سيدة النورية وكفتين والبلمند وحماطورة وكفتون ودير الحميراء وصيدنايا ومار الياس شويا وغيرها . فانه طالع كتبها وجمعها وامر من وضع لها الفهارس بمشارفته واستنسخ في مفكراته كثيراً من تعاليقها واوراقها المنشورة مما طالعتُ بعضه فرأيته دفاتر كثيرة واضابير مهمة وكان ولوعاً بجمع الآثار القديمة فحفظ تمثالاً نحاسيا احمر يمثل عشتروت (الزهرة) وجد في دير النبي الياس جنوبي حامات وهو راهب في النورية كما حفظ غيره

وبعد ان جلس على الكرسي البطريركي اعتنى بخزانة داره الكبرى التي ضمت اليها خزانة المرحوم ديمتري شحاده الدمشقي النفيسة وكلّف المرحوم الياس بك القدسي فوضع لها الفهارس المتقنة على طرز حديث

وبعث كاتب هذه الترجمة الى حلب سنة ١٩٠٩ لتفقد مكاتبها وابتياع نوادر مخطوطاتها ولا سيما خزانة آل الانطاكي الثمينة فيها فابتاع له قسماً وافياً منها واهم ذلك (تاريخ البطاركة) للعلامة المرحوم مكاريوس ابن الزعيم صاحب الرحلة الى روسية وبعض مؤلفات ولده الارشدياكون بولس ومنسوخات ثلجه اخي البطريرك افثيميوس كرمه كلها بخطوط مؤلفيها[1]

فجمع خزانة خاصة به غير الخزانة العامة وضعها في جانب غرفته وفيها مؤلفات ابن الفضل

---

(١) راجع مجلة النعمة الدمشقية (١ : ٢٢١)

الانطاكي واندرها (تأثيرات الجو) ومجموعات مؤلفات آل فخر وبولس الانطاكي اسقف صيدا وكتب النواميس والمجامع وتواريخ البطاركة والرحلات وكتب الاقمار الثلاثة ودواوين شعرية وعظات وكتب لغوية وعلمية وادبية وتاريخية رأيت بعضها وقد اهداهُ الى الملوك والوزراء وارباب المقامات

ومما وقفت عليه من خزانته في طرابلس كتاب (سحر البراعة) وعلى هامشه ديوان مقتنيه المرحوم السيد احمد البربير الدمياطي البيروتي كتبهُ الناظم بخطهِ فجمعتُ منهُ نحو خمسمائة مقطوعة كلها من نفائس الشعر ومبتكرات الخيـال وضممتُ اليها غيرها من مطالعاتي فجمعت ديواناً للبربير نشرت امثلة منهُ في مجلة الآثار (٣: ٣٤٢) وفي مجلة المشرق (٣: ١٤)

وحمل الى روسية ٤٢ مخطوطة منها بعض مخطوطات للعهد الجديد من القرن الحادي عشر للمسيح ومؤلفات ابن الفضل الانطاكي ورحلة ابن الزعيم الى روسية بخط ولده الارشدياكون وتاريخ البطاركة لابن الزعيم بخطه ومنها دينية وادبية ونحوية وطبية من عربية ويونانية

ولقد وصفها المستشرق الروسي صديقي العلامة كراتشكوفسكي برسالة بالعربية والروسية بيَّن فيها مزاياها مثنياً على غبطته بحفظها ومبيناً ما لها من الاهمية العلمية والمكانة القديمة. ووقفت بين اوراقهِ على قطعة من كتاب (قوانين كنسية) كتب فيها بتاريخ القرن السابع للهجرة والثالث عشر للمسيح اسم الشماس يوحنا ابن القس قسطنطين ابن القس سليمان من سلالة قس ابن ساعدة اسقف نجران وقد اكلت الأرَضَة بعض الاسماء لقدمها وهي من دير سيدة ناطور قرب طرابلس

ولما انشأنا في المجمع العلمي العربي بدمشق (متحفاً) للآثار في المدرسة العادلية كانت اول هدية منهُ له في اول تموز سنة ١٩١٩ وهي اربعة تماثيل تدمرية بديعة وبلاطة من الحرّي (الحجر الاسود) من العصر المكدوني اليوناني عليها كتابة يونانية طولها ذراعان وعرضها ذراع ونصف وحولها اطار بديع

وكان يعاضد جميع المشاريع الخيرية والعلمية والادبية ويبذل المال بسخاء عجيب لكل معوز غير ضنين بشيء لخدمة الانسانية على حد قول الشاعر :

تعوَّد بسط الكفِّ حتى لو انهُ اراد انقباضاً لم تطعهُ انامله
ولو لم يكن في كفهِ غير روحهِ لجاد بها فليتقِ اللهَ سائله

وكثيراً ما رأيتهُ ينظر بطرف نقَّاد الى المقالات والمباحث ويعرف مواضع الخطأ لاول لمحة ولقد قرأت له في مدرسة كفتين نقدهُ لمطابع الشرق وابن عقيل وابن مالك في مجلة الهلال (٣: ٦٦٠) وذلك سنة ١٨٩٤ . وسمعتهُ مراراً في مجالسته بكفتين ودمشق وزحله يبدي آراء صائبة في كثير من المباحث التي يطالعها ويصوِّب خطأها بدقة فكر وحسن تمحيص مع صحة رواية وقوة اسناد تساعدهُ عليها ذاكرتهُ الشهيرة وكانت له مجاميع بخطه رأيت منها في مدرسة كفتين مجلدين في الادب والتاريخ منها ديوان المعلم بطرس كرامه الحمصي شاعر الامير بشير الكبير واسمهُ (سلافة العقول في منظومات اسلامبول) وهو غير ديوانه المطبوع فاستنسختهُ لنفسي

ووقف على بعض المؤلفات الدينية والتاريخية قبل طبعها وهذبها وحفظ مفكرات بديعة كثيرة ضمنها انفس ماطالعهُ في المخطوطات . وكتب معظم رسائله بيده مع وجود كاتبه

ونال اوسمة كثيرة من الدولة العثمانية واليونانية والروسية وغيرها . وقدمت له بعض المؤلفات منها كتاب (البوليليون) وهو آيات من سفر المزامير تتلى بالاعياد الممتازة على مدار السنة جمعه العلاَّمة المطران جراسيموس مسرَّة وطبعه تذكاراً لزيارة غبطته لبيروت سنة ١٩١٢ معرباً اياهُ عن اليونانية ومقدماً اياهُ لهُ

وله مناشير وخطب كلها آيات بينات وبراهين دامغة تؤيد بلاغته . وعظات مرتجلة تدل على سرعة خاطره بمعان مبتكرة وافكار متجددة . وكثيراً ما ترجم عن اليونانية مقالات وخطباً بليغة ولا سيما عن جريدة الخلاص (سوتير) اليونانية ايام

كتابته (مقالات الهدية) وعرَّب قصة (الغرق والنجاة) ونشرها في السنة الرابعة من الهدية سنة ١٨٨٦ وكان يجيب على كثير من الاسئلة التي ترد على ادارتها

وقد اعتنى خاصة باخبار البطاركة والاساقفة ومشاهير الطائفة فجمع كثيراً من التعاليق والحواشي واخذ بعضها بالتصوير الشمسي ورأيت لديه (سلسلة اساقفة طرابلس بتفصيل وافٍ بخطه .

وقد انتخبته (اكاديمية موسكو) الروحية عضو شرف فيها . وكذلك (جمعية نشر التهذيب الديني الادبي في بطرسبرج) و(لجنة التذكار اليوبيلي لاسرة رومانوف) واهدت اليه نوطها (مداليتها) الخاص وذلك عند زيارته روسية . وسمته (جامعة اثينة الكبرى) اليونانية دكتوراً لاهوتياً

والفت (لجنة ليوبيله الفضي) الواقع في ١٠ ايار سنة ١٩١٥ اذ صرف غبطته ست عشرة سنة اسقفاً في طرابلس و٩ سنوات بطريركاً . فحالت الحرب العامة دون الاحتفال به وطوي امره بعد ذلك . واقترح بعد وفاته اقامة تمثال له

وطاف في انحاء الكرسي الانطاكي فكان محلى التكريم ومظهر الحفاوة حيثما حلَّ وايان رحل وقد رافقتُه في حوران وتفقدنا اثارها القديمة وكان يرافقنا بولس كاروليدي الاثري الكبير اليوناني فكان البطريرك ينسخ الكتابات القديمة ويدوّن ما يراه من التعاليق في المخطوطات وغيرها مما هو (خزانة فوائد مهمة)

صفاته واخلاقه

عرف هذا الفقيد العظيم باخلاق سامية وصفات رسولية فانه كان مسالماً للطوائف جمعاء لا يريد ان يقبل من ترك طائفته والتجأ اليه بل ينصحه ويرجعه الى حضن امه تفادياً من التشويش وحرصاً على الحقوق وكان ديِّناً محافظاً على وقته وعمله شفيقاً مدققاً كاتباً شاعراً خطيباً واسع الاطلاع جيد الذاكرة حسن البديهة سريع الخاطر رخيم الصوت مهيباً جليل المنظر حسن الملامح ابيض اللون واسع الجبهة فكيراً صبوراً

متأنياً وكان كثير الصدقات كتوماً لها . متقشفاً في عيشته . لا يريد ان يتميز على غيره من حاشيته واتباعه فيجلس دائماً على المائدة معهم الا في مرضه . كريماً غير منان نارياً يقظاً مثل اسمه [١] فلا يفوته ما يجري من الحوادث فيشارك الناس به في السراء والضراء . عارفاً لجميل من يخدمه اقل خدمة ومما يروى عنه ان السيدة سوزه ابنة المرحوم العلامة الدكتور سمعان كاهون استاذه في مدرسة عبيه جاءت من افريقية الى بيروت قبل الحرب الكبرى ونزلت في بيت حقير فسمع عنها وذهب بنفسه يفتش عليها حتى يفتقدها احتراماً لوالدها معلمه فرآها واحتفى بها وسلاّها وربما ساعدها بشيء من الدراهم على عادته المشهورة وكرمه الحاتمي . وكذلك كان يجهر في كل مجلس بفضل معلمه الطيب الذكر اسقف بيروت ولبنان المطران غفرئيل كما كان يذكر فضل استاذه العلامة الشيخ يوسف الاسير ولما طلب منه ولده الدكتور حسن بك الاسير رسمه سنة ١٩٢٤ كتب تحته من نظمه :

لابي محمدٍ الاسير فضل عليَّ انا الحقير
والرسم يشهد قائلاً اني اسير ابن الاسير

وكان محافظاً على واجباته كل المحافظة لا يمنعه عن اتمامها مانع وكثيراً ما كان وهو منحرف الصحة يقف ساعات في الكنيسة بكل خشوع كأنه احد افراد الشعب . واشتهر بثباته على مبدإِهِ فكان يتمسك كل التمسك بما يعتقدهُ صواباً حتى ينسب احياناً الى تصلب الرأي خطأ . ولما بايع جلالة الملك فيصل في دمشق على اثر انتخابه ملكاً قال له :

« بيننا وبينكم عهود في هذه القاعة لا تغيب عن ذاكرتكم الشفاَّفة اذا كنتم لا تزالون عليها فاننا عليها لراسخون » وبقي على ولائه معه حتى آخر ساعة برح فيها دمشق

وكان بالوقت ذاته منصفاً مبتدئاً من نفسه بالانصاف فيعتذر عما يراه خطأ

---

(١) غنطوس تحريف اغناطيوس لاتيني بمعنى (ناري) وغريغوريوس يوناني بمعنى (يقظ)

من اقل الناس وكثيراً ما وقف مع من هو ادنى درجة منه لتمحيص حقيقة طمست

واما حبه للسلام والتآلف فهو اشهر من ان يذكر فكأن الشاعر عناه بقوله :

كأنك من كل النفوس مركبٌ   فانت الى كل الانام حبيبُ

ووطنيته معلومة عند الجميع فكثيراً ما سمعته يتمثل بقول القائل:

بلادي وان جارت عليَّ عزيزةٌ   واهلي وان شحوا عليَّ كرامُ

وبقول الآخر :

ايا وطني ان فاتني بك فائتٌ   من العيش فلينعم لساكنك البالُ

ويكفيه فخراً جهادهُ في استعادة الكرسي الانطاكي الى ابنائه بعد ان احتكرهُ اليونانيون من سنة ١٧٢٤—١٨٩٩ اي مائة وخمساً وسبعين سنة . فاستمال الطيب الذكر العلامة المطران جراسيموس يارد الذي كان في جانب البطريرك الطيب الذكر اسبيريدون اليوناني الانطاكي عند حادثة طلاق يوسف الطنوس المشهورة فصار مع الوطنيين وفقاً لارادة معلمه السيد غفرئيل . وضم السيد نيقوديموس مطران عكار اليوناني الى الكتلة الوطنية فتمكنوا من اقامة الطيب الذكر البطريرك ملاتيوس الدوماني اول الوطنيين في هذا العصر من بطاركة انطاكية سلفه . ومهدوا الصعوبات التي قامت في وجوههم من السلطتين الروحية والزمنية الى كثير من امثال هذه الصفات والمزايا التي لو اردت تعدادها لملأت كتاباً

وخلاصة ما كان يجهر به في كل مواقفه :« ان الدين لله ولكن الوطن للجميع . وان الناس خلقوا لخدمة الانسانية والفضيلة والعلم . وان رضا المتعنت صعب واحتمال المتاعب واجب محتوم به . وان المال هو مرقاة للفضيلة وليس هو الفضيلة نفسها .»

وقصارى ما امتاز به الزهد والتقى والرسوخ على صحة المبداء والوطن والسلم . والكرم والانصاف وحب الاحسان والمحافظة على الواجبات والبر بالوالدين وذوي القربى من الفضائل السامية والصبر النادر والثقة بالله والحكمة الفائقة وطول الاناة واحتمال المصائب

وحدث بعهد بطريركيته نكبات مهمة وتقلبات مختلفة في البلاد منها اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ والحرب الايطالية العثمانية سنة ١٩١٢ وحرب البلقان سنة ١٩١٣ والحرب الكبرى سنة ١٩١٤ واحتلال العرب والانكليز لدمشق سنة ١٩١٨ واحتلال الفرنسيين لها سنة ١٩٢١ وثورة الدروز سنة ١٩٢٥ وكان في جميعها ثابت الجأش حسن التدبير جيد الحكمة والتصرف فخرج من هذه المآزق جميل الذكر وافر الاحسان رفيع المكانة . وكل من شهد استقبالاته في بيروت ولا سيما عندما زارها سنة ١٩٢١ عرف قدره فاحتفل به احتفالات غريبة لم ترَ بيروت افخم منها واخذت سلامه فرقة من الجند واستقبلته وفود الحكومة والقناصل وصدحت الموسيقى واطلقت الثكنة العسكرية حال وصوله ٢١ مدفعاً . وكذلك كان مشهد جنازته في دخوله لبيروت وخروجه منها الى دمشق

الاساقفة الذين سامهم

ان الاساقفة الانطاكيين الذين سامهم الفقيد معظمهم ممن تخرجوا في ايامه بالمدارس الوطنية الاكليريكية والاجنبية او كانوا من شمامسته وكهنته وهم :

السيد ملاتيوس قطيني (من دمشق) مطران ديار بكر

« زخريا راجي زخريا (من حامات في كورة لبنان) مطران بصرى وحوران

« روفائيل نمر (من زحلة لبنان) مطران حلب والاسكندرونة

« ميخائيل شحاده (من كوسبا لبنان) مطران البرازيل

« فكتور ابو عسلي (من عيثا الفخار في البقاع) مطران نيويورك واميركا الشمالية

« ثيودوسيوس ابو رجيلي (من دير خونا في لبنان) مطران صور وصيدا

« نيفن سابا (من السويدية (سلوقية)) مطران معلولا وصيدنايا وزحلة

« اغناطيوس حريكه (من بترومين (الكورة)) مطران حماه

« ابيفانيوس زائد (من دير عطية في القلمون) مطران حمص

السيد ايليا الصليبي (من سوق الغرب) الاسقف والنائب العام في اسقفية بيروت

ولما زار روسية سنة ١٩١٣ سام فيها اسقفين هما:

ديونيسيوس سامهُ في اللافرا في بوتشايف (التابعة لكرمي فولينيه) اسقفاً على مدينة كريمنتس

والسيد الكسي سامهُ في مدينة نوفغورد اسقفاً على غرودنه

التلامذة الذين علمهم خارج بلادنا وفيها

اعتنى هذا الفقيد العظيم بتهذيب كثير من الاساقفة والكهنة والادباء في مدارس روسية والاستانة وبلاد اليونان ورومانية عدا الذين تخرجوا في المدرسة البطريركية في البلمند ومدرسة كفتين والجامعة الاميركية وغيرهما. وممن تحضرنا اسماؤُهم الآن ممن درسوا في روسية من الاكايريكيين :

ابيفانيوس زائد (مطران حمص) والارشمندريت اثناسيوس كايله (من دمشق) واسكندر جحى (من بشمزين في كورة لبنان) وتوما ديبو المعلوف (من دارية البترون) وميخائيل خلوف (من بمالكه في بلاد العلويين). وانطونيوس مبيض (من حمص) وباسيليوس صيداوي (من دمشق). وغفرئيل دميان (من اللاذقية)

ومن العلمانيين :

انطون ووهبه ولدا الخوري عبدالله خشاب من (اسكلة طرابلس) وعبده جزره (من حمص). وابن شقيقة الفقيد جبران حبيب من (بيروت) كاتب البطريركية. وابن الهنديلي وقسطنطين عازار وحنا ديبو (من الاسكلة ايضاً). وامين شديد خزامه وانطونيوس الخوري ناصيف وسليم الحاوي من (اميون في لبنان). وميشال سمرا من (دمشق). والمرحوم اسكندر قسطنطين يارد من (راشيا). ويوسف فرح من (بسكنتا). ويوسف الخوري من (معرة صيدنايا). ويوسف الحداد من (عبيه)

وسبع سماحه (من الجوار لبنان) · ونقولا ديمتري (من ديار بكر) · وحنا زخريا (من حامات) · ومخايل الخوري شحاده (من كوسبا)

وممن تركوا الخدمة الاكايريكية غريغوريوس ابو حطب من (دمشق) وانطونيوس الخوري من (انطاكية) وغيرهم

وممن درسوا في الاستانة وبلاد اليونان :

المطارنة اغناطيوس حريكه وثيودوسيوس ابو رجيلي المار ذكرهما · ونيقولاوس عبدالله من (الناصرة) مطران اكسوم من البطريركية الاسكندرية · وفوتيوس خوري من (بيروت) منتخب بلميراس (تدمر) · والبروتوسنجلوس تريفن من (اللاذقية) والارشمندريت بولس خوري من (بتعبوره في كورة لبنان) · واغابيوس غلام وجراسيموس غلام من (بيروت) وارسانيوس الخوري من (الناصرة) وسرجيوس سمنه من (دمشق) والشماس ميخائيل الحاج من (بترومين في كورة لبنان)

وممن درسوا في بخارست عاصمة رومانية الارشمندريت يوسف ابو طبر الشاغوري من بيروت · وممن درسوا في الجامعة الاميركية الياس الطرابلسي وامين نخله الحداد (من عبيه) وفوزي عبد الله خباز وحنين الله ويردي (من دمشق) وجورج خوري وجورج نجار (من بشمزين) · وانور الخوري خلده (من مزرعة العرب في بيروت)

وارسل بعض العلمانيين الى مدارس اوربة ليتخصصوا بالفنون العصرية يحضرنا من اسمائهم حبيب افندي نجيب صوايا من طرابلس الشام الذي درس الهندسة في انكلترة وهو الآن مهندس مشهور في القطر المصري

وكلهم ممن خدموا الدين والعلم والفضيلة

خطبه ورسائله

كان خطيباً مصقعاً ترقص له المنابر وكاتباً بليغاً تضحك من بكاء اقلامه الاوراق وشاعراً مجيداً تنقاد له المعاني بالين زمام ولكنه كان اماماً في الخطابة لا

يباري بارتجالياته وتحريراً في الترسل لا يشق له غبار ولقد سمعته مراراً يخطب ولم اسمعه يعيد كلمةاو فكراً ولو كان كلامه في موضوع واحد بعد مرور سنين على القولين. وقرأت له من الرسائل التي كان يحبرها ببراعه العسال ما هو آية في البلاغة وجودة السبك واصابة المعنى وكل ما تنسجه يراعته كان ابن الساعة بلا تكلف ولا تحذلق وفي مناشيره التي كان يرسلها الى الرعية اسقفاً و بطريركاً ما فيها من آي الابداع ومعجز الاقوال. وفي مجلة النعمة البطريركية التي انشأها في دمشق كما مرَّ وفي الصحف الارثوذكسية كالهدية والمنار والمحبة والكلمة وغيرها ما فيه البرهان الدامغ من تلك الآثار الرائعة

وكانت المراسلات بينه وبين كثير من كبار الكتاب والشعراء في سورية ولبنان ومصر والمهاجر متداولة ولكثير منهم فيه اقوال ومدائح بديعة فضلاً عما كان يدور بينه و بين كبار البطاركة ورؤساء الاساقفة من المفاوضات والمحاورات التي كان يقنع بها من خالف بعض الاراء السديدة او ارتأى غير ما يرتئيه العموم مما حلَّ مشاكل كثيرة وازال سوء التفاهم فظهر بذلك الحق الصراح :

فمن خطبه المنشورة ايام كان شماساً في بيروت (خطاب في استقبال البطريرك جراسيموس) في كاتدرائية بيروت لما مرَّ بها في ٢٤ تموز سنة ١٨٨٥ ليذهب الى دمشق ويرتقي السدة البطريركية . فدهش البطريرك من موقفه الخطابي وبلاغته وسأل المطران غفرئيل عنه فقال له: هو «شماسي» . فتعجب من جرأته وذكائه واحبه من ذلك الحين حتى سُرَّ بانتخابه بعد ذلك اسقفاً لطرابلس وسامه بيده . وهذا الخطاب نشرته جريدة «الهدية» البيروتية في عددها ٣٣ من سنتها الثالثة بتاريخ ت١ سنة ١٨٨٥ قال منه :

واذا رمت في الامور نجاحاً   فاشتغل مخلصاً لوجه الاله

وسرت القلوب على شريط محبته فبلغت انتخابه اسرع من البرق . وسمي فكاد الغرب يسطع ببهجة به لولا ان الشرق اولى باشراقه . فسمت الى عليائه الافكار

يستوفي من نحوه اشارة وهو على ذلك مشغول بما يرضي الاله من الاهتمام بالكنائس التي زهت في الاعصر الاولى وكاد الزمان يخني عليها لولا عزيمته التي يستعير السيف منها المضاء والبدر السناء :

ولبى فقات السعد وافى فهيئوا — القلوب لنزل المالك الجسم والقلب

وازدهت صهيون وحق لها الازدهاء لان فروعها جازت الكرمل وغطت ارز لبنان واستدعت الوفد لتسلمهم ابنها رئيساً ومسلطاً عليهم وارفقته بوفد من عندها تكميلاً لمساعيها البهية فاقبل والاقبال يخدمه . والسعد واقف بين يديه . وتشرف والشرف يستمرئ به والتشريف ينسب اليه :

فافتر ثغرك باسماً بيروتنا والسعد لاح
وابيض وجهك من سنا ه وايس من نور الصباح
فزهوت في تشريفه والزهو من حشم النجاح
واعيد للشيخ الجليل شبا به بعد الرواح

لبنان شمخ بانفه اعتزازاً بعد ان كاد يحنيه الهم والهرم علي انك لو صفقت عجباً ورقصت طرباً ودقلك لبنان على المثاني . واستخدم لسان حاله رقيق الالفاظ وبديع المعاني . لما وفيتما النعمة حق الشكر . ولا جئتما على ما لمولانا من طيب الذكر .»

وله خطاب آخر بليغ باستقبال نيقوديموس بطريرك اورشليم وسائر فلسطين لما وصل بيروت في ٩ ت٢ سنة ١٨٨٥

واما تأبينه للمرحوم حبيب بسترس بسترس المعروف بالصغير فهو آية البلاغة نشرته الهدية في عدد ٤٧ من سنتها الرابعة بتاريخ ٤ حزيران سنة ١٨٨٦ من صفحة ٨٥ — ٨٨ افتتحهُ بقوله :

هوى طود عزّ فاق فخراً وسؤدداً اذا عدّت الاعلام قلّ نظيره
فتىً همةً . شيخ كمالاً وخبرةً ملاك عفافاً . طاب نفساً عشيره
دهته الدواهي الدهم لكن فجاءة فقوّض ركن العز واندكّ سوره

دهته الدواهي الدهم ليلاً فاطفأت   به خير مصباح تلألأ نوره
ففي كل صدر لوعة لفراقه   وكل فؤاد قد تعالى زفيره
وعين العلا تجري الدموع سخينة   وشخص الذكا ناراً تلظى ضميره
على سيدٍ إبن العلا (وحبيبه)   وشهم جليل للاعالي مصيره

فاني اتيت سيرتك ايها الفقيد المفدى اجد عجباً ففي صغرِ سنك فطنة وذكاء وفي فتوتك جداً واجتهاداً وفي شبابك عفافاً وامساكاً وفي رجوليتك نعم الرجل انت فلم تزل مذ جيء بك الى عالم الوجود آية بينة على فضل ربك في سيرتك وسريرتك . عشت على ما تطلب الغاية التي خلق الانسان لاجلها . ورحلت نحوها مزوداً ببركات الكنيسة ودعاء خدامها . وصلوات الفقراء واحزان الاهل والخلان . نعم ان الرحلة الى المسيح افضل جداً (في ١ : ٢٣) لكن فقدنا اياك مضر بنا كثيراً خسارتنا جسيمة . عظيم قدرها . جليل خطرها الخ ...» وكله بليغ مؤثر

وقال من تأبين بليغ نشر في كتاب «حافظ السلام» الصفحة ١٣٢ رثى به الطيب الذكر اسكندر الثالث قيصر روسية :

«ليسبق دمعي كلامي اذا وقفت فيكم اليوم خطيباً . ويخونني جلدي ان اردت الى التجلد سبيلاً فاني واقف على مطلّ معركة تشيب لهولها الاطفال نزال ايّ نزال بين آساد لا بين رجال . بين ملوك لا بين عوام . فملك الموت سلّ السيف القامي . ليفتك بملك الروس في الشمال القاصي . ملك مبغوض ينازل ملكاً محبوباً . القسوة تنازل الرحمة . الغلظة والجفاء تنازل الرقة والولاء . في معترك حالك القتام . شديد الزحام . مخوف الصدام . تلتقي فيه قلوب الانام واجفة . والجوارح خاشعة . والالسنة داعية . والعيون ضارعة . والاكف مرتفعة . والمدامع منحدرة من مقل كل الروس ومحبي الانسانية والسلم . وجنود الرزايا تسير بكرات الآلام على جسم اقوى من الحديد . وفؤاد ارق من النسيم . وعزم لا يعرف الانثناء . وجنان يشارك الكل في الكل . فمن يسمع بالاسكندر الثالث ولا يدهش اذا قيل انه

مريض . من يسمع بذلك القادر ولا يندهل اذا قيل غدا ضعيفا . من يسمع بذلك الهمام ولا يقف شعره اذا قيل امسى بلا همة . من يسمع بصاحب هذه الصورة ولا تفيض مع الدموع دماؤه . اذا قيل انه ترك القصور ليأوي القبور . حقاً ان الامبراطور اسكندر الثالث قد قضى

المعركة انجلت عن فوز ملك الموت . وعن امره من كانت القلوب ترجف من ذكره . وتخشى الممالك سطوته . وتحدث بقدرته الركبان . وعن مملكته لا يغيب النيران :

اري كل العيون تسح دمعاً　　كأن الموت حل بكل بيت
وما يبكي الجميع سوى كريم　　سما حياً كما يسمو بموت ...الخ

وقال في تأبين معلمه ومهذبه الطيب الذكر غفرئيل مطران لبنان وبيروت المتوفى سنة ١٩٠١ بعد ان بكى واستبكى وذكر ما له عليه من الفضل ما نصه :

« فانت اذاً الرئيس والعظيم في اسرائيل . خليل الله الذي يبكي لفراقه البنون اباً . والرعية حامي الحمى . والكنائس راعيها . والمدارس بانيها . والكل في ذلك حبيب . وفي صدورهم زفير ووجيب . لان الصديق اذا مضى يخلف تحسراً عليه »

وقال في افتتاح «المجمع» الانطاكي» بدمشق في ٢٢ حزيران سنة ١٩١٠ :

« كما يضم الاخ اخوته الغائبين عنه المشتاق اليهم عند رؤيتهم كذلك اضمكم الى قلب يتحرك بحبكم يا رؤساء كهنة الله العلي ومطارنة الكرسي الانطاكي المقدس اخوتي وعيوني واجنحتي الذين بهم اشتد وانظر واسمو واقول : «ما احسن وما اجمل ان تسكن الاخوة معاً»

تبارك الله الذي جمعنا في هذه المرة الثانية الى هذا المجمع الانطاكي المقدس وجميعنا بالصحة والعافية لكي نمجد بصوت متفق الروح القدس الذي نعمته اليوم جمعتنا وقدرته لقوينا للعمل المرضي لله في شعبه المبارك « اه » ثم انبأهم بعود المفاوضات

مع البطريركيات الثلاثة القسطنطينية والاسكندرية والاورشليمية وانهم هم الذين بدأوا بمكاتبته

ومن خطبه الرائعة ما لا يزال يرن في اذني من خطاب القاه في زحلة سنة ١٩١١ قال فيه مما يدل على وطنيته ووداعته :

« ايليق بنا ان نهجر وطننا بحجة انه فقير ؟ . ومن ذا الذي يهجر اباه او يستحي من الوقوف امام كوخه . بل من ذا الذي يستبدل اباه وان كان فقيراً . ؟

انني احب ابناء وطني من جميع المذاهب على السواء ولا فرق بينهم عندي . ألست واياهم ابناء اب واحد وام واحدة هما آدم وحواء ؟ . او لسنا جميعاً صنعة خالق واحد هو الله . او لسنا نسكن ارضاً واحدة ونستنير بضوء شمس واحدة ونستظل بسماء واحدة وترف فوقنا راية واحدة هي راية الوطن الذي لا يتجزأ »

وقال من خطاب القاه في حمص سنة ١٩١٣ :

« قد سرنا كاكليروس بنعمة الله سيرة لا غبار عليها . اذ كنا نشعر بالواجب الديني ونتمه قدر ما يتسنى للضعف البشري ان يبلغه واما فيما يتعلق بالواجب الاجتماعي نحو الطائفة التي شاء الله ان نتولى قيادتها فاننا نعتقد ان سعينا وحده لا يوصلنا الى النتيجة المبتغاة وانه يلزمنا تعاون وتعاضد للتمكن من الوصول الى الرقي قريباً

« قال لي يوماً احد الشيوخ : « انت رجل تفكير لا رجل عمل » وهو قول جدير بالالتفات لان الرئيس من الطائفة منزلة الرأس من الجسم واذ كان عمل الرأس انما هو التفكير وسائر الاعضاء يطلب منها اظهار ذلك الفكر الى حيز الوجود فكان على الرئيس ان يفكر بالوسائل المنجحة امته وعلى الامة ان تبادر لاتمام ما فكر به فيتم الاصلاح ويسود النجاح

« اليد وهي عضو من البدن وتتحرك بارادة الدماغ تمتد الى مسافة لا يصل اليها الرأس بسهولة . فالامة اذا التي ينتظر لها النجاح هي الامة التي ترتبط فيها ارادة الرئيس والمرؤوسين فهو يفكر وهي تنفذ تلك الافكار . واذ ذاك لا يمضي وقت

طويل حتى يظهر رقيها وفلاحها . هكذا نحن اذا شئنا استرجاع مجدنا القديم . وبلوغ الشأو الذي نسعى اليه من النجاح يتوقف على اتباعنا القاعدة الطبيعية ان يفكر الرأس وتسعى الاعضاء »
انتهى

ومن رسائله البليغة ما كتبه الى صديق قلعت عينه قال فيها سنة ١٨٩٣ م وابدع ما شاءت بلاغته :

« ان مفاعيل المشيئة الالهية اصح واقوم من مفاعيلنا ومشتهياتنا فهي تعمل عملها الصالح الموافق لانفسنا . ولئن كانت قد ذهبت باحدى المقلتين فقد تركتك تنام باحدى مقلتيك وتتقي باخرى المنايا . فانت اليقظان على شرف نفسك ووطنك وملتك وكنيستك . النائم عن اعدائك وعن ارتكاب الشرور والمحرّمات . حرس الله لك باقي الجسم من الرزايا وتكفل لك بفقد المفقود الجنة مثوىً وخير مأوى ولا ارانا بك الا كوكباً ساطعاً من كوّتين سدّت احداهما فلا زال النور فائضاً ومنتشراً من الكوّة الاخرى . وامكنك من الصبر كعادتك في الصعاب والملمات»

وكتب الى احدهم من رسالة :

« ضع حب المسيح في قلبك . ولا تصرف الاموال في غير ابوابها الاصولية احترم من يحسن اليك ويعلمك . اذكر الله في ايام شبابك . وكن قدوة حسنة لرفاقك التلامذة حتى يدركوا ان ابن الشرق هو كابن الغرب من حيث التهذيب والاخلاق وتلقن العلوم . لا تنسَ والدتك بل تفقدها دائماً برسائلك . ودعني اسمع اخبارك السارّة من حين الى آخر »

وكتب الى الدكتور بيارد دودج تعزية بالمرحوم والده من دمشق في ١٩ حزيران سنة ١٩٢٦ من رسالة :

« يحق لابيك ان ينازع الملوك امجادهم لتخلف رعيتهم عنهم وتجري رعيته في ركابه . اولئك يخشى ظلمهم وهو يطاف به لعطفه ورأفته . اولئك عروشهم ظاهرة وهذا عرشه القلوب المعترفة بالجميل .

فوفاته وفاة فرد يموت لموته قوم كثيرون . وفقده خسارة لا تعوض ولكنها لا نجاة منها . فالموت لا ينجي من افاته حصن

صفات الاب الجليل تغيب بغيابه ولكن ذكرها يبقى بذكره في العقول والنفوس . كما ان الحياة كالنفس تحتجب ولا تفنى كذلك تحفظ في النسل المبارك والمهذب نظيركم »

ومن رسائله الى ذوي المقامات السامية ما كتبه الى نجاشي الحبشة وصاة في سنة ١٩١١ وهو :

جلالة محب المسيح ملك ملوك الحبشة منليك الثاني الاسد الغالب من سبط يهوذا صان الله عرشه بملائكة النصر والسلام آمين

نسأل الله ان يطيل بقاءكم على عرشكم السعيد ويجعل النصر اليف اعلامكم والامن والخصب مالئين ممالككم . ونعرض ان فلاناً من ابناء ملتنا ومن ذوي الذكاء والنباهة . قد طاف في ممالك عديدة وتوظف في شؤون شتى فان شمله التفاتكم السني كنا من الشاكرين ونزداد دعاء بتوطيد اركان ملككم العادل

عن دار بطريركيتنا في دمشق الشام في ٢ ايار سنة ١٩١١

الداعي لجلالتكم في المسيح
بطريرك انطاكية وسائر المشرق

غريغوريوس

و كتب رسالة طويلة بليغة في (نكران الجميل) قال منها :

الا قبح اللؤم ما اشأمه ومن يقتني ذاك ما ألأمه

حقاً انه ما خنق النعمة غير المن . ولا قتلها الا الكفران . ولا يغمط الاحسان الا كافر بالله وباليوم الآخر . عدو الله الذي اعد الثواب دليلاً على شكره للمتقين . وقد كان في مقال الانجيل الشريف عن غمط ابن الجنس نعمة ابن جنسه خير

وازع حيث قال : « أليس العشرة طهروا فاين التسعة ؟. الم يوجد من يقدم الشكر لله الا هذا الغريب الجنس؟ »

وكتب اليَّ لما انتدبني للبحث عن المخطوطات في مدينة حلب من رسالة بتاريخ ١٣ ايلول سنة ١٩٠٩ من دمشق ما نصهُ :

« تناولنا عزيز خطابكم عن حلب ولقد تأكد لنا عن سابق ان زائر حلب لا يعود الا شاكراً ولا سيما اذا كان طالب علم وادب فانه واجد ما يهواه ويغني به عن كل ما حواه . ولقد حققتم حسن ظننا بالقوم وصدقتم مسموعاتنا عنهم فنعم المخبر ونعم المخبر عنهم

سررنا للغاية بوجود فوائد عديدة تنقلونها الى دفتر . اما الكتب التي طلبناها وبيناها لبنوتكم فنؤمل اذا سمحوا لكم ان تستحضروها لنقف عليها فقد توسمنا فيها خيراً واذا انتقيتم سواها مما ترون له عظيم فائدة خذوها مثل كتاب تفسير ستة ايام الخليقة لباسيليوس الكبير واخيه غريغوريوس نيصص . اذا كانت نسخته جيدة الخط وامكن احضارها لمقابلة نسختنا عليها للتصحيح . ومثل هذا الكتاب الذي فيه مجادلة بيروس مع مكسيموس المعترف فنصحح نسختنا . وكذلك كتاب عظات كيرلس الاورشليمي التعليمية فاننا لم نجد في اديرتنا ومكتبة البطريركية نسخاً لنصحح عليها ما في مكتبتنا الخاصة . نشكر فضل كل محب للعلم على امداده لكم بما فيه خدمة للعلم وهذا لا يهمل ذكره ايضاً . ولا تنسوا ما عندكم هدية منا ديوان سليمان الغزي لتطلعوا على نسخة منه هناك لتصحيح ما عندكم ... » (اه)

وكتب اليَّ في ١٠ ك٢ سنة ١٩١٠ من رسالة :

« ليست مذكراتي كمذكراتكم مفردة لغرض التاريخ بل هي على الغالب مجاميع شتى لا تتيسر بسهولة الاستفادة منها الاَّ ان كانت عندنا ايام عطلة وهذه لا نعلم متى تكون »

وكتب اليَّ في ١٢ اذار سنة ١٩٢٧ عن دمشق من رسالة :

« نشكر لكم عنايتكم (بالآثار) واعادة طبع هذه المجلة المدبجة بقلمكم العذب السيال اللذيذ نتاجه لكل ذي ذوق سليم اعانكم الله على متابعة السير في هذا الشوط الادبي والعلمي وجزاكم كل خير .

طلبتم صورة شمسية عن الورقة المذكور فيها اسم قس بن ساعدة كانت في كتاب بدير سيدة ناطور سنأخذ صورة فوتوغرافية عنها ونقدمها لبنوتكم [1]

ان كمية من الاوراق القديمة و (الكليشيات) لامثالها مما يلذ لصاحب الاثار و كتباً خطية (او فوتوتيب) مجموع هذه جاهز لكم . »

ولما زار (مجلس الدوما) في روسية استقبل بحفاوة واجلال فكلف ان يكتب كلمة في (كتاب الزوار) فكتب بخطه ما نصه :

« اني لقد زرت لاول مرة في حياتي مجلس نوّاب الشعب الذي نعترف واياه بايمان واحد وقد سرَّني جداً ما شاهدته من الاتحاد في هذا المجلس بين اعضائه الروحيين والعلمانيين مما يعود لخير البلاد المحروسة من الله . فقلت في نفسي ان هذا الاتحاد هو مصدر القوة ولهذا اطلب اليه تعالى ان يبارك هذا الاتحاد وهذا الوفاق لانهُ عليهما يتوقف توفيق الجميع ونجاحهم في ٢٧ شباط سنة ١٩١٣ ؛ »

وجرى في احدى المآدب الروسية حديث بشأن (جمعية منع شرب المسكرات التي اسسها السيد فلاديمير مترو بوليت بطرسبرج فقال البطريرك من حديث بليغ :

« لو كان المسكر ضرورياً لحياة الانسان لكان اوجده الله ينابيع كالمياه — ان المسكر هو بلية من بلايا البشرية فعلى رعاة الكنيسة خصوصاً ان يجاهدوا ضد هذه البلية المبيدة »

و كتب هذه البرقية من بيروت الى دمشق تهنئة : لحضرة صبحي بك بركات الخالدي رئيس الاتحاد — [نشكر الشواعر (الخالدة) مستمدين (بركات) القدير لانبلاج (صبح) السعادة للامة (بالاتحاد) الوسيم وفقاً لتمنيات الافئدة المتدفقة بالحب

(١) راجع الصفحة ١٣

منظوماته

رأيت له منظومات كثيرة رائعة وتواريخ شعرية بليغة فمن ذلك قوله وهو مطران طرابلس من قصيدة ارسلها الى صديقه الخواجه وهبه كرم في الاسكندرية :

قد عاند العلماء دهرٌ دأبه   حرمان ارباب العلوم المالا
فالكم ترى من جاهلٍ متمولٍ   وغزير علمٍ قد غدا « فتَّالا »
فالطرد مثل العكس عند الدهر في   نسق الكتابة والقراءة حالا
لكن لدى تمييز السنة الورى   بعض يحطُّ وبعضها يتعالى
فاولو الكياسة واللطافة والنهى   يتخيرون وغيرهم ما بالى
فالعلم يرفع بل يزيد مكانة   طلابه ومهابة وجلالا
فتأدبوا ادباً يزين شبابكم   في دينكم واستصحبوا الكمّالا

وكتب على (كتاب) قدمه لمعلمه الطيب الذكر المطران غفرئيل من ابيات مؤرخاً لسنة ١٨٩٣ ومقتبساً :

لا يفي نثري وشعري   شكركم في طول عمري
وازروني بدعاكم   فبه يشتد ازري
حين الاستعمال أرخ   إصنعوا هذي لذكري

وكتب على رسم له :

الجسم اقوى ويفني   والرسم اوهى ويبقى
يا ناظراً رسميَ اذكر   « الله خير وابقى »

وقال في رثاء المرحوم الشاعر سليم الجدي من قصيدة :

مناف الشعر يا لقومي وقفاً   ليته الآن كان وقفاً عليا
لافيه حقوقه في نظام   فلقد كان بالعهود وفيا

اين من نظمه نظامي واني　　لست اهلاً لان اكون ولياً
غير اني في منصب من علاه　　يتولى الاوقاف ما دام حياً

وقال من حكمه :

اذا كانت الدنيا تدور لذاتها　　وللغير يوماً وربي المحركُ
فلا عجب ان دار قلب الاولى بها　　ولم يثبتوا فالمرء بالشبه يسلكُ

وقال في الصداقة :

لئن جفاني صديقي لست اتركه　　فانما الصدق مبدا للصداقاتِ
وامسك الحق ان الحق ينصرني　　حتى يعود الى ماضيه بالآتي

وقال من تأبين اسكندر الثالث قيصر روسية :

سقى قبره الدمع السخي وكله　　سخين فعاد الترب يحرق بالدمعِ
وبرَّد مثواهُ دعاه خلائق　　له بينهم طول المدى اجمل الصنعِ

وقال من رسالة هنأ فيها المرحوم حميَّ ابرهيم باشا نعمان المعلوف برتبته سنة ١٩٠٦ :

لابراهيم عن نعمان مبدا　　طلاب المجد بالطرق الجميله
فحاز مؤخراً احسان ملكٍ　　حباهُ (امارة الامرا) الجليله
فقلت مهنئاً تبقى وترقى　　بظل مليكنا حامي الفضيلة

ومما اجابني به على قصيدة رثيت بها اخاهُ المرحوم عساف الحداد من قصيدة في ١٩ ك٢ سنة ١٩٠٤ قوله :

لم يسمع الجيران يوماً صوتنا　　حتى ولاذقنا الكلام الموجعا
كالروح في جسمين كنا اوضيا ــ العينين من كاتيهما يبدو معا
فاذا حزنت على اخي فيحق لي　　لولا بقاؤكَ يا بني ممتَّعا
لاذقت ما قد ذقته وبقيت ما　　شاء الاله معزَّزاً وممتَّعا

وكتب اليَّ من دمشق رسالة بتاريخ ٣ ك٢ سنة ١٨٩٨ — وهو يشتغل بالمسألة البطريركية العربية — قال فيها :

كتبتُ اليك لا ابغي جواباً سوى نسخ الروايات الثلاثِ (١)
فقد ضجرت لطول المكث نفسي ومات العزم فاسعف بانبعاثِ
وان لكم حقوق الطبع فيها ونسختها تصان عن انبثاثِ
فلا تكتب لشخص رجاي موتاً فتلزمني الشكاية بالمراثي

وله من قصيدة لاحد اصدقائه :

عهدتك لي ودوداً يا صديقي وخير المنجدين بوقت ضيقي
واني عند عهدي لستُ الفى نظيرك في الحنوّ على الصديقِ
واني ذاكر فضلاً قديماً لحضرتكم ينولني حقوقي
لذلك قد عقدت حديث عهدٍ لهُ سندٌ على العهد العتيق

وقال يمدح رستم باشا متصرف لبنان لما كان سفيراً في لندن من قصيدة :

سمير المعالي جئت لبنان حاكماً فاقصيت عنه كل ضدٍّ يواثب
وقد صار في لبنان حكمك زهرةً تعطر منها قلبه والجوانبُ
حكمتَ فاحكمت المدارس والقضا فأمن ذو حق وهذّب طالبُ
وانحوا بحب العلم يحذون حذوكم فاكثرهم قارٍ ومنشٍ وكاتبُ
وبينهمُ القوم الأولى قد بعثتمُ لتحصيله فالكل جانٍ وجالبُ
بلندن ان تبقى ووليت حكمهُ فاحكامكم فيه غوادٍ غوالبُ
بلندن ان تبقى ووليت حكمهُ تقلص ظلٌّ للرشى اليوم حاجبُ
فما كنت ترضى للقضا غير اهله ولا ولي الاحكام الاّ المناسبُ

---

(١) اراد بذلك الروايات الثلاث التي نظمها في مدرسة كفتين ومثلت فيها بعهده وهي (حب الوطن او مقتل بطرس الاكبر ملك روسية لولده الكسيس) و (جزاء المعروف) او جابر عثرات الكرام وهي قصة خزيمة بن بشر الاسدي مع عكرمة الفياض — و (انجاز الميثاق في فدية اسحق) وهي ذبح ابرهيم لولده اسحق وكلها شعرية

رحلت وراحت من هنا آية الهنا　　وحلت بنا بعد النعيم المصائبُ

ارسمم هل من عودةٍ يشتفي بها　　حزين ومظلومٌ وباكٍ ونادبُ

ايا صورة التوفيق بل مذهب المنى　　لاهل النهى طول المدى انت صاحب

وله من قصيدة لصديقه القديم الشيخ رشيد نفاع جواب قصيدة ارسلها اليه وهو عضو في محكمة كسروان :

لحا الله الغرور فكم رماني　　بما يدني حِمامي من وريدي

فما انا من رجال الشعر اصلاً　　فلم جاوزتُ في نظمي حدودي ؟

الى ان قال :

لاني قد قدمتُ على مديح　　يقصر عنه افصح من لبيدِ

مديح فتىً ابي الأ المعالي　　فصار سميَّ (هارون الرشيد)

وقال يمدح السيدة كاترين دهان لاحسانها لمدرسة كفتين سنة ١٨٩٤ من قصيدة مطلعها :

دعاني نحو مدحك كاترينا　　جميل الفعل نحو العالمينا

لدن خيرت فاخترتِ المعالي　　سميراً بل رفيقاً بل قرينا

الى ان قال :

لها همٌ بفعل الخير بادٍ　　كأن بذاك للفقرا ديونا

تعودت المكارم عن ابيها　　وسائر اهلها المتقدمينا

وقد احيت لهم ذكراً جميلاً　　يقصر عنه وصف الواصفينا

وقال يؤرخ بناء كنيسة السيدة في قرية حامات (من كورة لبنان) بعهد معلمه المطران غفرئيل وسعي صديقه الشيخ راجي زخريا سنة ١٨٩٤ :

بنى السيد المفضال (غفريل) بيعةً　　فلا زال اسباب العبادات يخدمُ

ينادي بها (راجي) الشفاعة قومهُ　　الا فادخلوها آمنين وقدّموا ...

صلاةً وها داعي الصلاة مؤرخاً　　اقام بنا حيث الشفيعة مريمُ

وقال في تأبين المرحوم نقولا بك نوفل الطرابلسي من ابيات :

لقد برح الخفاه وصحّ نعي — النعاة بموت اكبرنا (نقولا)
فما لا نستطيع وفاهُ اصلاً تفيه دموع اعيننا نُقُولا
الا يا افصح الخطبا بعصر اتسكت اذ نقول ولن تقولا
فكنا نرتجي عهداً طويلاً لنجحك والزمان رأى الافولا

ولما زار بيروت سنة ١٩١٢ قدم له العلامة جراسيموس مسرة مطران بيروت قلماً ذهبياً . فتناوله منه وكتب به مرتجلاً :

كتبتُ بالقلم المهدى بلطفكمُ الى حقارتنا تذكار شكراني
الله يحفظكم يا رافعاً علماً للفضل والنبل بل يا خير مطران

وقال من نوع التخيير في القافية :

لا تقل تمّ سريعاً بل اجد ما انت تعمل — تصنع — تفعل
فعيون الناس تهوى ما غدا في العين اكمل — ابدع — افضل

وقال متفنناً :

العين مرآة القلو — ب كذا انا للناظرين
كن صالحاً يا ناظري لتسرّ بي في كل حين

وقال من قصيدة يجيب بها الياس نوفل الطرابلسي نزيل الاسكندرية عن قصيدة ارسلها اليه وكانت بينهما مراسلات ومساجلات :

ادرت اليّ مكرسكوب فضلٍ فكبّرني وهذي اوليه
معاملة كهذي قيدتني بافضال والطافٍ خفيه

الى كثير من امثال هذه ولو تفرغ للشعر لبلغ منه مبلغاً بعيداً

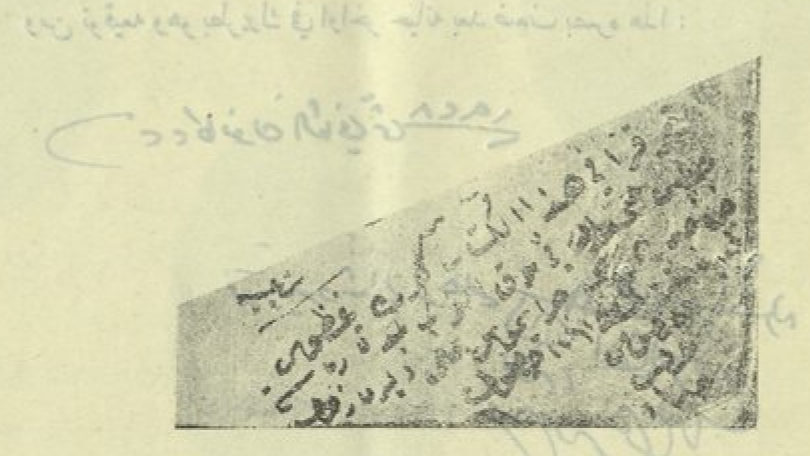
امثلة من خطه وتواقيعه

كان خط الفقيد من صغره صريحاً على القاعدة الديوانية ثم تحول قليلاً الى القاعدة النسخية المعروفة عندنا (بالكنائسية) وهو سريع الكتابة مضبوط الحروف حاضر البديهة في نثرهِ ونظمهِ

اما توقيعه فكان في اول امره بسيطاً يتحول الى صور مختلفة بحسب درجاته فلما صار اسقفاً اصطلح على شكل خاص بقي يدونه الى ان صار بطريركاً فغيره ولما ضعف بصره تغير توقيعه قليلاً وبقي على وضعه الذي اختاره له .

وهذه امثلة من خطه وتواقيعه بتواريخها :

قرأنا له في آخر كتيب بكنيسة القديس جاورجيوس في سوق الغرب كلمة بخطه وتوقيعه هذا مثالها وهي سنة ١٨٧٦ م قبل ان صار شماساً [١]



---

(١) وهذا نصها : « قد قرأ في هذا الكتاب محرره من عبيه غنطوس جرجس الحداد في سوق الغرب بمدة رئاسة صاحبه الخوري جراسيموس على دير مار جرجس فيها سنة ١٨٧٦ في ١١ ايلول »

غنطوس جرجس حداد

ومن تواقيعه وهو شماس ما كتبه سنه ١٨٨٧ وهو (الداعي الشماس غريغوري حداد) :

ومن خطه وتوقيعه وهو اسقف طرابلس هذا :

ومن توقيعه وهو بطريرك في اواخر حياته بعد ضعف بصره هذا :

تذكار زيارة البطريرك الفقيد للجامعة الاميركية في بيروت سنة ١٩١٢ م



الفقيد البطريرك غريغوريوس



المرحوم الدكتور دانيال بلس رئيسها

المرحوم الدكتور هوارد بلس رئيسها



الاستاذ جبر افندي ضومط رفيق الفقيد بمدرسة عبيه

اقوال المشاهير فيه

انتخب بعض اقوال فيه كثرت ولا محل لاستقرائها الآن فابقيتها لترجمته المطولة التي اعددتها له

قال يوسف باشا فرنكو متصرف لبنان لما اعدَّ غبطته له مأدبة في دار الاسقفية اللبنانية في حدث بيروت في اوائل سنة ١٩٠٢ م شارباً نخب غبطته بالافرنسية ما معربهُ :

« انني اول مرة قابلت غبطتكم بها في دمشق شعرت بعاطفة خصوصية نحوكم ورأيت بنفسي شغفاً بمبادئكم ثم اني اشاهدكم الآن في مسقط رأسكم لبنان بين فريق من وطنييكم يقدرونكم معي حق قدركم فتمكنت بي تلك العاطفة بما تجلى من صفاتكم الطيبة وبناءً عليه فانني اشرب على ذكركم متمنياً لكم اقبالاً مستمراً ولبنيكم سعادة كاملة بكم »

وقال العلامة الدكتور باس رئيس الجامعة الاميركية في بيروت على اثر خطاب بليغ القاهُ غبطته على الطلبة عند زيارته اياها في ٦ كانون الثاني سنة ١٩١٢ ما معربهُ عن الانكليزية :

«يا صاحب الغبطة—يسرني ان اصرّح لديكم ان هذه الكلية تحترم الدين قبل كل شيء — الدين الذي لا يفرّق — ونحن هنا من طوائف واجناس متعددة نسعى ابداً لزيادة الالفة والمحبة والتفاهم والاحترام

(اولاً) بعضنا لبعض في هذه العائلة المدرسية الصغيرة

و(ثانياً) للعالم اجمع في العائلة الانسانية الكبيرة — وان لزيارة غبطتكم وخطابكم النفيسة هذه تأثيراً بالغاً في نفوسنا لا ننساهُ ابداً »

ونشرت جريدة يومية في القاهرة سنة ١٩٠١ م مقالة قالت منها في المقابلة بين

البطريرك غريغوريوس وابا منناداس : « انه كان من قومه بمنزلة القطب من الرحى وحامي ذمارهم اذا حميت الهيجاء وشارعهم الحكيم اذا انبثق نور السلام — فغريغوريوس مثله كشاف معاضل الامة وحامي حماها عند نشوب الملمة تلجأ الى رأيه الرشيد وتستهدي بمصباح حكمته المضيء . . . اذا تصفحنا التاريخ ورأينا مآتي ابا منناداس وما كان يعامل به من الكفران وقسنا عليه مآثر السيد غريغوريوس حداد وما يجازى به من العدوان ثبتت لنا المقدمات وصح لنا القياس : « ان السيد غريغوريوس حداد هو ابا منناداس ملته الرفيع الشأن»

وقالت جريدة المنار البيروتية(٣:٥٣٧)عند ذكرها لأنحة الاخوية الارثوذكسية الطرابلسية التي اسسها وهو اسقف طرابلس من كلام طويل مانصهُ :

« قلنا الرئاسة الروحية ونريد بها مثال الصلاح وعنوان التقى وراموز الكرامة وانموذج الغيرة الرسولية رجل البر الطائر الصيت وعبدالله الحارّ الايمان والنقي الذيل الذي تجسمت فيه الفضائل للناظرين وقمع الله بمرهف اعماله ضلال الزائغين . ذلك هو السيد غريغوريوس حداد مطران طرابلس وما يليها الجزيل الطهر والفائق الاحترام

. . فهذا السيد الجليل قد تجرد لتنشيط هذه الاخوية بعظاته الخالبة الالباب والآخذة بمجامع القلوب لانها موعبة من روح الطهر متجسمة بجثمان الخشوع متحلية بقلائد الهدى متوشحة ببرود الكمال مبدأُها الاولي حب الله وغايتها القريبة حب القريب ومرماها البعيد السعادة الابدية . . . »

وفي اوائل سنة ١٩١٣ كتب اليه القيصر نقولا الثاني الروسي بواسطة قنصل روسية في دمشق البرنس بوريس شاخوفسكوي يستقدمه الى روسية وهذا معرب منشوره : « بالنظر الى العلاقات التاريخية القديمة بين اسلافنا العظام قياصرة الروس و (بين) بطاركة انطاكية الشرقيين قد اصدرنا امرنا القيصري بدعوة غبطة بطريرك انطاكية السيد غريغوريوس ليترأس الحفلات الدينية التي ستبتدىء في ٢١ شباط

(ش) سنة ١٩١٣ تذكاراً لمرور ثلاثمائة سنة على اسرتنا رومانوف المالكة »

ونشرت ذلك جريدة نوفوه فريميا الروسية الشهيرة

وقال العلامة اغناطيوس كراتشكوفسكي الروسي في رسالة وصفه للكتب (هدايا الفقيد للقيصر) التي نشرها في المجلد السابع من (الشرق المسيحي) سنة ١٩٢١ — ١٩٢٤ وجمها على حدة ما معربه من كلام طويل :

« وفي مجيء البطريرك غريغوريوس الرابع الى روسية ليحضر الاحتفالات اليوبيلية تذكار مرور ٣٠٠ سنة لاسرة رومانوف قدم للقيصر السابق نقولا الثاني قسماً من مجموعته الخطية وقدره ٤٢ مجلداً . . .

وقد ادمجت هذه التقدمة بمكتبة جلالته الخاصة وكانت حتى الانقلاب محفوظة في القصر الشتوي وبعد ثورة شباط التمست اكاديمية العلوم ان يصير نقل المجموعة الى احدى الخزائن العامة في بتروغراد . وبعد انقلاب تشرين الاول تكرر هذا الالتماس اخيراً وفي خريف سنة ١٩١٨ تحقق وبعد سلسلة من المفاوضات انتقلت المخطوطات في شهر شباط سنة ١٩١٩ الى المتحف الاسيوي . . . »

الى ان قال :

« اما قسم المخطوطات المسيحية العربية من هذه المجموعة فلها اعتبار آخر مهم لان مجاميع بتروغراد بحصولها عليها من حيث انواعها صارت مساوية بفائدتها لمكاتب باريس والفاتكان تاركة وراءها برلين ولندن . . .

فمن الفروع المهمة فيها التوراة والعقائد والجدل والتاريخ الكنسي والجغرافية والشعر الديني وعلم الاشتقاق والفلسفة الطبيعية وعلم الطب . . . » (اهـ)

وقال الجنرال غورو المفوض السامي الافرنسي بعد ان قابله في دمشق على اثر احتلالها

« انني بالحقيقة قد شاهدت رجلاً عظيماً لا يمكنني الا ان أحني رأسي له احتراماً »

وعندما دخل الفقيد دير اللافرا في بطرسبرج يوم وصوله اليها في ١٩ شباط و٤ ادار سنة ١٩١٣ حياه السيد انطونيوس رئيس اساقفة فولينا بخطاب طويل (نشرته مجلة الكلمة ٩ : ٢٨٦) قال منهُ :

« ففي ذلك الزمن القديم المقدس كان شعبنا الروسي يحني هامه بكل فرح وورع امام بركة يمين البطاركة الشرقيين الذين كانوا السنة بعد السنة يزورون كنيسة المسيح في بلادنا الشمالية . ولهذا فاننا نحن ابناء العصر الحاضر المحزن ننظر اليك باعين الفرح والورع مشاهدين بكل جلاء كنيسة المسيح كلها كأنها متجسمة فيك وذلك لانك تشخص بذاتك اسمى درجاتها

اجل ؟ ان الروسيين يكرمون بشخصك السلطة الروحية العليا مندهلين اندهالا روحياً عظيماً من ان كرسيك البطريركي وان يكن الآن خالياً مما كان عليه سابقاً من الغنى والمجد الخارجي الا انه مملوء مجداً آخر غير فاسد اي من الاعتراف الدائم حتى الاستشهاد ايضاً من اجل ايماننا الالهي . هكذا هي صفات الروسيين انهم يحنون رؤوسهم ليس امام العظمة العالمية بل امام عظمة الروح المقدسة بالنعمة والقدمية ويحترمون رتبة رئاسة الكهنوت نفسها ليس لاجل اقترانها بالغنى والجلال العظيم بل بالاكثر لاجل اقترانها بالجهاد والاحتمال والمذلة . فالشعب الروسي يتورع تورعاً جزيلاً امام كل هذه الجهادات الرسولية العديدة التي جرت في سدتك الاسقفية منذ ازمنة تلاميذ المسيح الاولين حتى يومنا الحاضر . واذ يتصورك حاملاً هذا المجد الكنائسي مجد ارتباط الارض بالسماء مدة تسعة عشر قرناً مجد ارتباط الكنيسة بالمسيح وبرسله يرفع التمجيدات الشكرية للرب الذي اهلهُ لان ينظر صورتك الحبرية ويسجد حتى الحضيض امام قدميك المغبوطتين محيياً دخولك دير العاصمة الشمالية المقدس » (اهـ)

وقال السيد فلاديمير مترو بوليت بطرسبرج عند ما شرب نخب غبطته بمأدبة اقامها

له في منزله في دير اللاثرا في ٢٢ شباط و٧ اذار من خطاب طويل نشرتهُ مجلة الكلمة (٩ : ٢٩٠) قال منهُ :

« ان احد الحجاج الروسيين في الشرق قد اسعده الحظ ان يتعرف بغبطتكم شخصياً . ولما عاد الينا اخذ يحدث بحماسة عظيمة عن التأثير الشديد الذي حصل له مما شاهده فيكم من البساطة المسيحية والمعاملة الابوية والغيرة الدينية والمحبة الخالصة لروسيا ولمليكنا الحسن العبادة . وفي ختام حديثكم مع هذا الزائر الروسي قلتم له : « ان امنيتي الطويلة العهد هي ان اذهب الى روسيا وانظر بعيني القيصر الروسي الذي احبه محبة شديدة والذي لا اكف ليلاً ونهاراً من الصلاة لاجله [1] »!

واني على يقين بان زيارتكم هذه لروسيا ستبقى فينا ليس فقط ذكراً حسناً عن شخصيتكم المحبوبة بل ايضاً شعوراً بليغاً بارتباطنا معكم ارتباطاً روحياً وثيقاً واشتراكنا معكم اشتراكاً اخوياً خالصاً »

فاجاب الفقيد باللغة العربية ما مفاده (الكلمة ٩ : ٢٩١)

« ان احد الالمان قد قال — وقوله هذا قد انتشر في جميع انحاء اوربا الغربية فبلغ الشرق الارثوذكسي : ان ثلاثة شعوب يعقب احدها الآخر في الانتشار والازدهار وهي الشعب اللاتيني والشعب السكسوني والشعب السلافي . ففي القرن العشرين قد اتى دور ازدهار الشعوب السلافية الارثوذكسية يتقدمها الشعب الروسي الارثوذكسي العظيم تحت صولجان قيصره الحسن العبادة الامبراطور المعظم!. وجميع الشعوب الشرقية السلافية واليونانية والسورية تعتقد اعتقاداً ثابتاً بوظيفة روسيا الارثوذكسية هذه السامية . ولهذا فكل ارثوذكسي في الشرق يحب روسيا حباً شديداً معتبراً اياها حاميته ذات الشهامة العظمى . وهذه المحبة لروسيا نرضعها نحن مع حليب امهاتنا . واعلموا ان ما يدهشنا بالاكثر ليس هو عظمة روسيا بل

---

(١) ولما وصل البطريرك الى اودسا في ١٨ شباط و١٣ اذار سنة ١٩١٣ استهل خطابه للمحتفلين بقدومه قائلاً « اني سعيد لوصولي لارض روسيا الجميلة »

محافظتها على حسن العبادة والتقوى الحقيقية ...

ولهذا فان قلبي المملوء من المحبة الحارة والشكر العميق لروسيا ولقيصرها يجعلني ارسم في ذاكرتي واحفظ الدوام ذكرى هذه الايام المجيدة التي تحتفل فيها الروسية بيوبيلها الوطني .. »

وقال العلامة الاستاذ جبر ضومط في خطاب له القاهُ امامه في الجامعة الاميركية « صفات اشتهرت منك اشتهار الشمس وذاعت كما ذاعت اشعتها فملأت المشارق والمغارب من اكواخ الفعلة الى قصور الملوك »

وقالت جريدة (نوفويه فريميا) الروسية الشهيرة عندما زار روسية في ٢٠ شباط سنة ١٩١٣ ما معربهُ :

« والبطريرك غريغوريوس الرابع العامل والمهم في الكنيسة الارثوذكسية الخطيب المرتجل اللامع المتصف بحسن السيرة والعفة المُشرب قلبه محبة روسيا والشعب الروسي حاصل على نفوذ الكلمة واحترام المكانة في بلاده السورية [1] »

وقال السيد غايكيروس الاسقف اليوناني في الكرسي الاورشليمي لمن سأله عنه « ان البطريرك غريغوريوس نستطيع ان ندعوه بحق بطريركاً رسولياً »

وقال الدكتور بانوس قسطنطين راعي كنيسة التجلي اليونانية في الولايات المتحدة الاميركية في تأبينه : «ان الخسارة فيه واحدة ولا فرق بين السوري واليوناني كما ان المصيبة هي جسيمة وعظيمة عليهم وعلينا »

وجاء السيد انسطاسيوس الروسي رئيس اساقفة بسارابيه نزيل القدس للاحتفال بقداس عن نفس الفقيد في الكاتدرائية المريمية في دمشق باسم الكنيسة الروسية في اواخر شباط سنة ١٩٢٩ واقام جنازاً فوق مدفن البطاركة وابن الفقيد تأبيناً بليغاً بالروسية نشرت جريدة (الف باء) الدمشقية الغراء تعريبه وترك على الضريح (ايقونة النياح) معمولة من السيلان ومما جاء في تأبينه البليغ قوله :

---

(١) مجلة النعمة الدمشقية (٤ : ٨٠٢)

« ان الشعب الروسي المستعبد من البولشفيك كان يعطف عليه البطريرك غريغوريوس كما لو كان هو نفسه مقيداً (عبر ١٣ : ٢) ولم يكن يعبأ غبطته بالحواجز الكثيرة التي كانت تفرقه عن روسيا المعذبة بل كان يسعى بكل محبة ليستحضر اليه العدد الاوفر من الروسيين المبعدين التعساء الذين مع كونهم مشتتين ولا وطن لهم فقد تبناهم غبطته وكان يحن عليهم ويعتني بهم كما تعتني المرضعة باولادها (١ تسا ٢ : ٧) وقليلون هم الذين يعرفون كيف يقلدون الشفقة الالهية ويعطون بسخاء وبدون تعيير لمن يحتاج الى معرفتهم (يع ١ : ٥) واما البطريرك الراقد فانه كان يذكر من قال : مغبوط هو العطاء اكثر من الاخذ (اع ٢٠ : ٣٥) وكان يحسن بطريقة يجعل يده المحسنة خفيفة الوطأة على المحسن اليهم . غير انه لم يكتف بالمساعدات المالية للروسيين بل كان عطفه الادبي عليهم اكبر قيمة ولا احد يشعر بمثل هذا العطف نظير الكنيسة الروسية المضطهدة

.. ولكن ليس رؤساء الكنيسة الروسية الارثوذكسية وحدهم والشعب الروسي فقط كانوا يعتبرون البطاريرك غريغوريوس الكلي الطوبى مقياساً للعقيدة الارثوذكسية وركناً للترتيب القانوني في الكنيسة — بل الشرق باجمعه ايضاً ان لم نقل كل العالم المسيحي كان ينظر اليه كالى ركن الايمان غير المتزعزع المتبع الحق والتقوى والمحبة والصبر والوداعة والمعترف الاعتراف الحسن امام شهود كثيرين (١ تيموثا — ١١ : ١٢)

.. كثيراً ما كان ينتفع بنصائحه الرشيدة رؤساء الكنائس المستقلة وعندما كان يرسل اليهم رسائله الاخوية الحاوية شرح بعض المسائل الكنسية الغامضة كان الجميع يقبلونها باحترام خصوصي ممزوج بشعور التخشع الذي كانت كنائس آسيا الصغرى تقبل به رسائل القديس اغناطيوس الموشح بالله التي كان يرسلها وهو سائر في موكبه الملوكي . ليقتبل آلام الشهادة في رومية . وقد سار البطريرك غريغوريوس الكلي الطوبى في اثر سلفه هذا العظيم ونال في النهاية نصيبه

.. وكما كان رسول الامم كذلك البطريرك غريغوريوس كان يتلقى بصدره

الرحب آلام وهموم الكثيرين من ابنائه . ومن كان يضعف منهم ولا يضعف معهُ الراعي الباسل ؟ . ومن كان يعثر ولا يلتهب هو معه (٢ كو ١١ : ٢٩) ؟

انه فتح قلبه واسعاً للجميع ولا سيما ايام الحرب العامة والحرب الاهلية وكان يوزع بيد سخية الخبز الروحاني والجسدي على المحتاجين بلا تمييز بينهم متخذاً في احساناته العميمة مثالاً له الاب السماوي الذي يشرق شمسه على الاشرار والصالحين . وكنت تراهُ دائماً يتمخض بآلام النفس » (ا م)

وقال السيد انطونيوس متروبوليت كياف وغاليسية المقيم في سربيه تأبيناً مؤثراً القاه في بلغراد على اثر اقامة جناز للفقيد في ٤ و١٧ ك١ سنة ١٩٢٨ ونشره برسالة على حدة بالروسية طبعتها « مجلة القراءة الاحدية » الكنسية في ڤرسوڤيا وهي لسان حال كنيسة بولونية الارثوذكسية المستقلة التي رئيسها الاعلى غبطة المتروبوليت ديونيسيوس (الذي سامه البطريرك الفقيد لما كان في روسية) مصدرة بترجمته وآثاره ورسمه . فما قاله في هذه الترجمة بوصفه :

« عقل نيّر وتعمق كبير في المطالعة وخبرة واسعة في رعاية الشعب . هذه المميزات اظهرت الراقد بالرب كاحد رؤساء الكنيسة الانطاكية الممتازين وقربته من العرش البطريركي ... وبقي غبطته يدير الكنيسة الانطاكية تحت سلطة الاتراك منذ ١٩٠٦ الى سنة ١٩٢١ [1] . ولا يخفى كم كان يطالب في ذلك العهد من الحكمة لمن كان يتولى رئاسة الشعب الروحية . فالبطريرك كان يمثل شعبه امام الحكومة وكان مسؤولاً عنه تجاهها بحريته وبحياته ايضاً . عند ما يظهر من العرب الارثوذكسيين اضطرابات او قلاقل . ولكن البطريرك غريغوريوس كان هكذا قريباً من شعبه وهكذا عارفاً بحاجياته شاعراً بحالته سهراناً على مصالحه حتى انه في اثناء تلك المدة لم يصطدم بالحكومة مرة واحدة بل كانت الطمأنينة والهدو والراحة مخيمة على شعبه بل في عموم الاسقفيات الانطاكية »

---

(١) اراد سنة ١٩١٨ ولكنه ادمج سلطة العرب بسلطة الترك

... ونحن مع الكرسي الانطاكي نبكي ايضاً لان الراقد الكبير كان يحب كنيستنا البولونية المقدسة المستقلة وقد قال بذاته لغبطة سيدنا كما يعرف ذاك عموم قراء مجلتنا من وصف رحلته الى الشرق[١] : « عندما عرفت من البطريرك المسكوني عن استقلالكم ابتهجت بالروح وباركت عن بعد كنيستكم . فالاستقلال لازم لكم كالهواء لاجل حفظ وحدة الايمان لاننا نرى ان الشقاق والانقسام منتشران الآن في كل مكان لا توجد فيه سلطة كنسية ثابته وقوية وحازمة »

ثم نشر بعد هذه الترجمة المطولة تأبين السيد انطونيوس في الجناز الذي اقيم للبطريرك الفقيد وهو الذي نشرت تعريبه جريدة الحوادث الطرابلسية الغراء في ١٧ ك٢ سنة ١٩٢٩ وكله آيات بينات تدل على فضل الفقيد ومما قاله فيه :

« ... من هنا يتضح لكم ايها الاحباء ان غبطة البطريرك غريغوريوس كان من اهم المسببين لرجوع البطريركية الينا . وقد فرح فرحاً عظيماً عندما علم باتمام هذه الامنية ، على ان الامر لم يقتصر علينا وحدنا بل اعيدت البطريركية بعد عدة سنوات الى السرب وتأسست في رومانية ايضاً . ولا يستبعد بان ذلك ما كان حصل لولا شخصية البطريرك غريغوريوس البارزة وتأثيره الروحاني الفتان على الشعب الروسي وعلى الشعوب التي اتبعت خطواته بتزييد مجد الكنيسة المقدس ... اما الآن فاعلن بان كتاب (التعليم المسيحي) الذي الفته وبقيت اكثر من ثلاثين سنة اترقب فرصة طبعه ولم يتيسر لي — تمكنت اخيراً من تحقيق امنيتي بطبعه اولاً مستنداً الى المساعدة السخية التي تكرم غبطته بها دون ان اطلبها مشفوعة بمساعدات اخرى من بعض المطارنة وقد صدقت بهم جميعاً اقوال القديس بولس: « انتم فقراء ولكنكم اغنى من كثيرين . لا شيء عندكم ولكن كل شيء لكم » .

ان القوة المعنوية التي كانت للبطريرك غريغوريوس والخسارة بفقده التي لا

---

(١) يريد زيارة المتروبوليت ديونيسيوس للفقيد في دير سيدة صيدنايا سنة ١٩٢٧ بعد اربع عشرة سنة من سيامة البطريرك له

تعوض تزداد اهميتها وخطورتها عندما تتمثل تلك الاضطهادات والاضطرابات التي تنتاب الكنيسة الارثوذكسية ...» . (انتهى)

وقال الشيخ مصطفى الغلاييني في تأبينه ببيروت من خطاب موءثر طويل :

« لقد ادعاك النصارى والمسلمون والكل يزعم انك بطريركه اما انا فاقول : انك لم تكن بطريرك طائفة من الطوائف وانما انت بطريرك الانسانية الفاضلة »

واما اقوال الصحف الاجنبية والوطنية فيه مجلات وجرائد في الوطن والمهجر فهي تملأ مجلداً ضخماً وكلها عواطف ومشاركة في مصابه من ذلك قول جريدة الشرق الادنى (Near East) الانكليزية في تعليقها على خبر وفاته مما عربته جريدة (الف باء) الدمشقية الغراء :

« انه ولد في عبيه في جبل لبنان سنة ١٨٥٣ [1] وان المركز الذي شغله كان من الاهمية بمكان عظيم وقد استطاع في اثناء الانقلابات التي حدثت في عهده منذ عام ١٩٠٧ الى يوم وفاته [2] ان يحتفظ بما له من الحب والاحترام في نفوس افراد شعبه »

وقالت (المجلة السورية) في مصر من كلام طويل (٣: ٦٢٢) :

هذا وما زال الناس يتحدثون بمآثر الفقيد العظيمة وبحفلات مأتمه التي لم ترها سوريا ولبنان قبل اليوم . رحم الله الفقيد العظيم الذي رزىء به الشرق لانه كان احد رجاله الافذاذ واجمل للملة الارثوذكسية الكريمة فيه العزاء »

وقالت مجلة الحارس البيروتية (٦: ٢٤٩) في كانون الثاني سنة ١٩٢٩ من مقالة طويلة بليغة :

« وقد تسابق الى تكريمه واظهار الحزن عليه المسلمون والنصارى والطوائف المتنوعة فكان ذلك اقوى دليل على احترام جميع الناس لشخصيته الممتازة ولمركزه العالي في رئاسة طائفة كريمة

---

(١) والصواب سنة ١٨٥٩ كما مرَّ في اول هذه الترجمة (٢) راجع الصفحة ١٨

قد يكون بين الارثوذكس انفسهم من تُعارض آراؤهم في شأنه بالنظر الى الامور الداخلية المتعلقة بهم دون سواهم . ولكن من خارج الحدود الارثوذكسية اتفق الناظرون اجمع الى هذا البطريرك العظيم على مقدرة سحرية فيه على اكتساب القلوب وجذبها وربطها بمحبته . لذلك لم يكن له بين الطوائف جمعاء الا المحبون . ولم يقر بفضله العميم الاّ المحبون ... لانه لم يكن لنفسه ولا لاقربائه بل كان للخير والانسانية »

وقالت جريدة البشير البيروتية للاباء اليسوعيين الافاضل بتاريخ ١٨ كانون الاول سنة ١٩٢٨ ما نصه من مقالة في نعيه :

« ولاشك ان الجميع سيقتبلون هذا النبأ المؤلم بالاسف الشديد مكبرين الخطب وذلك لما يعرفه القاصي والداني في شخص الفقيد الجليل الوقور من الرزانة والحكمة والتروي واللطف والغيرة والتسامح وحب الاحسان الى غير ذلك من الشمائل الطيبة والاخلاق السامية التي امتاز بها فحببته الى ابناء الوطن على اختلاف مذاهبهم وانزلته من القلوب منزلة رفيعة واوجبت له الاحترام وجعلت لكلامه النفوذ البعيد بين ابناء طائفته وعند اولياء السلطتين الروحية والزمنية ... »

ومن اقوال الشعراء فيه قصيدة بليغه للاستاذ شبلي بك الملاط لما زار غبطته طرابلس سنة ١٩١٢ ؛ بعد بطريركيته[1] قال منها :

طلعت في الشام والافكار مائجة	بالبطركية والآراء والجدلُ
فكنت اسبقهم فكراً لما افتكروا	وكنت احزمهم رأياً بما عملوا
نشطت بالقوم من اسر الدخيل ولو	لم تشحذ العزم لم يحلُ الاولى دخلوا
كانوا ولا فرق في احكام سلطتهم	اعامرٌ وطن السوريّ ام طالُ
فهلل الدين واهتزت منابرهُ	للفوز واختال منهم معطف ثملُ
وكنت اخطب من قالوا وابعدهم	شأواً فلا شطط في القول او خطلُ

(١) ديوان الملاط صفحة ٣٧٣

من كل موعظة عصماء شاردة　　حيناً تمرٌ وحيناً طعمها عسلُ
والامر امرك في ألباب من فطموا　　على هواك وقد شابوا وما اعتدلوا

وقال الشيخ رشيد نفاع صديقهُ من قصيدة بليغة ارسلها اليه وهو مطران طرابلس:

تحدّث عنك يا حبراً جليلاً　　تباهي فيه باقي الناس فضلا
ألم يكُ (للهدية) منك شأن　　كبير في المشارق عزَّ مثلا
و (بوق) بشارة الانجيل يدعو　　بني الدنيا الى الايمان اهلا
وفي (كفتين) مدرسة كساها　　من الاتقان ثوباً ليس يبلى
وقد عرفت [طرابلس] علاهُ　　ولاقت منه في الحاجات سؤلا
خطيب مصقع كالسيل ليلاً　　تدفق بالمواعظ في المصلىَّ
اذا استشكلت مسألة فسلهُ　　تجدهُ يوسع الاشكال حلاً
له في ابحر (اللاهوت) خوض　　نظير سميه النيصي (١) المعلىَّ
باقوالٍ كتبرٍ بل كدرٍ　　تسنّ لعالم الكهنوت سبلا
يجيد النظم في مدح ونصح　　فاصعبه يجيء لديه سهلا
امام آنست منه البرايا　　هدىً للحق والاديان تتلى

وقال السيد عبد الرحيم قليلات البيروتي من قصيدة بليغة في رثائهِ :

رسول سلام لا لحزب وانما　　لاحزاب ارض الوحي انت رسولُ
اذا ما شكا الخطب الاعم (فراتها)　　بكى (بردى) حزناً وعدّد (نيل)
وشق قلوب اليعربيات خاطرٌ　　يردّده جيل ويذكر جيلُ
صحائف تاريخ من الخير والتقى　　لها الفضل عرض والمكارم طولُ
لئن كان الروم الكرام سبيلهم　　فاني لغير الروم عنك سبيل

الى كثير من المدائح والتهانيء والمراثي التي لا محل لها في هذه العجالة

---

(١) يريد غريغوريوس الثاولوغوس اي المتكلم باللاهوت

نوادره

مرَّ بعضها في اثناء ترجمته والان نذكر ما يحضرنا منها مما يدل على مبلغ ذكائه ولطف اخلاقه وقوة بديهته وحسن محاضرته :

ذهب مرة مع اناس استحيوا ان يذهبوا الى المستشفى ليطببوا مجاناً . وجلس مع المستشفين كانه كاهن بسيط تنشيطاً لهم حتى ان الدكتور وبستر الشهير الاميركي لم يعرفه فلما علم به اعتذر منه لانه لم يستقبله كرئيس اساقفة

ولما كان مطراناً في طرابلس اعتقل قاضي تلك المدينه بوشاية جاسوس من رجال السلطان عبد الحميد العثماني واعرض الكل عنه . ولكن المطران زارهُ في سجنه وشجعه وامدَّهُ بالمال ودافع عنه في طرابلس والاستانة حتى ظهرت براءته واعيدت اليه كرامته — ولما صار بطريركاً جاء ابن ذلك القاضي مع رهط من وجهاء مدينته وقال له :

« انا آتٍ من الاستانة لتنفيذ وصية والدي المتوفى فقد قال لي :

« سر الى دمشق وقبل زيارتك للجامع الاموي اذهب وقبل يد بطرك الروم»

فلما سأله عن والده عرف انه هو الذي كان يساعدهُ في اعتقاله

وحدث مرة ان نصوحي بك والي بيروت اغلظ له الكلام في طرابلس لمدافعته عن نيقوديموس مطران عكار وهو غير عالم انه مطران بل ظنه قساً او راهباً . ولما علم انه اسقف اراد الاعتذار اليه . فطلب غريغوريوس ان يكون اعتذاره امام المجلس الملي . فاعتذر الوالي اليه امام المجلس الملي فاجابه الفقيد اذ ذاك قائلاً :

« لا يسوغ لي ان اصفح عنك كرئيس طائفة لان هذا من حقوق المجلس الذي اهين بشخصي . وكعثماني لا اصفح عنك لان العثماني لا يجوز ان يهان . ولكنني كمتعبد زاهد اصفح عنك بما يأمرني به ديني لتظهر فضيلتي فاشكر لك اساءتك

التي اظهرت فضيلتي » فتأثر الوالي من كلامه هذا وزاد في عينيه حرمة ومكانة

عرفت بنفسي جرأته في مدرسة كفتين ولاسيما سنة١٨٩٧ لما ارادت الحكومة ان تمنع تمثيل رواية (انجاز الميثاق في فدية اسحق) التي الفتها لتلك المدرسة. وذلك بوشاية بعض شيوخ طرابلس ذوي النعرة الدينية فاوصلوا امرها الى (المشيخة الاسلامية) في الاستانة فبذل جهده ومثل الرواية رغماً عن منعها

وارادت امرأة ان تقبل يده وهو مطران فلما امسكتها لتقبلها قالت له : « ما اجمل هذه اليد البيضاء يا سيدنا » فقال لها وهو مطرق : « انها للدود يا بنيتي »

كان صحافي معادياً له في اسقفيته و بطر يركيته وقد كتب عنهُ مقالات جارحة وهو لا يبالي بنصائح اصحابه الذين انبوهُ على تحامله هذا . وبقي مصراً على رأيهِ الى ان زارهُ مرة فاستقبله البطريرك ببشاشة وحدثهُ بانسٍ فخجل الصحافي وقال الآن رأيت من عناهُ الشاعر بقوله :

وانـي لالقى المرء اعلم انهُ عدوٌ وفي احشائهِ الضغن كامنُ
فامنحهُ بشراً فيرجع قلبهُ سليماً وقد ماتت لديهِ الضغائنُ

ولما تفشى داء الهيضة (الهواء الاصفر) في طرابلس الشام لم يشأ ان يترك المدينة مثل غيره من الذين غادروها فبقي فيها متفقداً المصابين ومؤاسياً الفقراء ومعزياً المنكوبين من جميع الطوائف ولما الح عليهِ كثير من اصدقائهِ للفرار اجابهم بقوله :

« ليست نفسي بافضل من نفوس الذين لا يستطيعون الفرار من الوباء »

وكان في ايام الصوم في مجلسهِ فلما صار وقت الظهر جاءهُ الخادم برغيف وخيارتين فاطلَّ من نافذتهِ ورأى بعض اولاد فقراء يجولون في ساحة الدار البطريركية. فسأل عنهم فقيل له : انهم جياع . فناداهم واعطاهم ما اعدَّهُ لافطاره

وزاره مرة كاهن قروي فرأى قلنسوته ممزقة فقال له :« يا ابني خذ قلنسوتي هذه واخلع تلك » فاخذها وسار . فارسل الى شقيقتهِ يطلب قلنسوة كان يظن انها

في خزائنهِ . فلم تجد واحدة له . فبقي بدون قلنسوة حتى رجع الشماس الذي يعمل القلنسوات من سفره . فعمل له قلنسوة . فقال : « يبعث الله »

وامن مرة وجيهاً التجأ الى الدار البطريركية فاجارهُ وحماهُ فاثار عليهِ بعمله هذا حفيظة الوالي الذي غضب عليهِ . ثم رافق المستجير الى دار الحكومة و بجلسة قليلة مع الوالي عفا عنهُ . ولما عاد البطريرك الى داره قال الوالي لرجل من بطانتهِ : « والله كنت حاقداً على هذا البطريرك وكنت مصمماً ان لا اقف له حين دخوله علي . ولكنني لما اطلَّ علي شعرت بقوة فيه اوقفتني رغم ارادتي »

ودعي الى مائدة رجل اسمهُ (فرح) قصير القامة فاخذ يبرهن لغبطته ان افراد اسرتهِ كلهم طوال القامات الا هو فقال له البطريرك : (ان الفرح دائماً قصير يا بني)

ولما تملك المسلمون كنيسة عربين (عربيل) في ضواحي دمشق مدعين انها من اوقاف الجامع وحكمت لهم بها المحكمة الشرعية . ارسلت اليهِ اوراق الحكم الى روسية يوم كان فيها . فقابل طرخان باشا سفير الدولة العثمانية في بطرسبرج فجاءهُ السفير بنفسه وافهمهُ الدعوى ثم التفت اليهِ وقال : « بطرك افندي انك عثماني اكثر مني » فاجابهُ الفقيد قائلاً : « ان وطنيتي لا تسمح لي ان اطلع الاجانب على شؤوننا الداخلية فالثياب القذرة يجب ان تغسل ضمن البيت لا في خارجهِ » . وابرق السفير الى الاستانة يخبرها بعثمانية البطريرك وباعطائهِ حقوقهِ فاعيدت الكنيسة الى المسيحيين حالاً

وخاطت له شقيقتهُ (قنبازاً) للنوم وارسلتهُ اليهِ ليقيسهُ فلما وصل اليهِ كان في حضرتهِ رجل فقير رث الثياب فخلعهُ عليهِ من فورهِ . وبقيت شقيقتهُ تلحف عليه بقياس ذلك الثوب لتعلم اذا كان يناسبهُ وهو يقول لها : انني مشغول الآن . حتى عرفت بعد ايام انهُ وهبهُ فسكتت

ومدَّ مرة متسول يده اليه للاستعطاء فسأله راهب بقربه عن طائفتهِ . فانتهره

البطريرك قائلاً : « هل تمنع عنه الصدقة اذا كان من طائفة غير طائفتك ؟ . ألم يكفه ذل التسول ومد يده للاستعطاء . حتى تستذله بسؤالك اياه عن عقيدته » ثم نفح المتسول ببعض الدراهم التي في جيبه وصرفه مسروراً مجبور الخاطر

وقال له بعضهم ان صديقه القديم الشيخ رشيد نفاع ايام كان عضواً في المؤتمر السوري في دمشق نظم ابياتاً يتغزل بها في فتاة يهودية جميلة من بني (عباده) رآها يخاصرها خطيبها فانكر الفقيد ذلك لعلمه ان الشيخ رشيداً لا يتعمد مثل هذه الاغراض ولكن الناقل اسمعه الابيات وقال له : ان بعضهم اقترحها على الشيخ وهي قوله :

رأيت غزالة كالشمس حسناً يخاصرها فتى سلبت فؤاده
الى ابناء اسرائيل تعزى واسرائيل احرز ما اراده
سألتُ عن اسمها قالوا «ادالُ» ابوها ينتمي « لبني عباده »
فقلت لقد اصابوا حين سمّوا لأن لمثلها تجب العباده

فقال الفقيد لقد نسي الناظم بيت الختام و كتب من فوره تحتها قوله :

وعابدها يصحُّ القول فيه « رشيد قد اضاع بها رشاده »

وقصدته امرأةٌ « مستورة » تستجديه ففتش في جيبه وصندوقه فلم يجد معه ما يعطيها وبينما هو مضطرب البال اذا بتحويل مرسل اليه ببعض الليرات فحوّله اليها من فوره وسرّي عنه لانه ساعد المحتاجة

و كثيراً ما كان يطوف على حاشيته وخدامه قبل ان يذهب الى فراشه طالباً منهم مسامحته عما اغضبهم به مما فرط منه حتى لا يدع الشمس تغيب على غضبه

وكان عندما يزور ضيفه البطريرك الاورشليمي نزيل دمشق لا يجلس معه على الطعام مع الحافه بدعوته وذلك لئلا تظن حاشيته انه تركهم على غير عادته ليتأنق في طعامه . فيعود الى البطريركية ويجلس معهم على المائدة غير متميز بشيء من المآكل

ولما كان زائراً مدينة زحلة اقام قداساً لاحد سكان المعلقة فجاءه رجل درزي

وطلب احسانهُ فلم يجد في جيبه ما يعطيه اياه فصرفهُ بالحسنى معتذراً اليهِ كعادتهِ وواعداً اياه بالتعويض عليه مرة ثانية . فما كاد الرجل يخرج من الباب حتى جاء صاحب المنزل ودفع له خمس ليرات ذهبية عن القداس فنادى ذلك الرجل واستعاده اليه واعطاه ما قبضهُ قائلاً « الله بعث لنا ولك »

ولما قابل البطريرك قيصر روسية في قصره تحف بهِ اسرته وبطانته نزل القيصر عن عرشه واستقبله حاسر الراس وانحنى امامهُ فباركه البطريرك وقبله حسب عادة الروسيين في كتفهِ . واما القيصر فقبل رأس البطريرك اولاً ثم يده اليمنى وبقي الاثنان واقفين .

وبعد ان هنأه بسلامة الوصول وسمع جوابه اجلسهُ على مقعد الى جانب العرش ثم صعد القيصر الى عرشهِ وحادثه بشؤون مختلفة الى ان قال له : « سمعت منذ زمان عن عزمك على المجيء الي وتمنيت كثيراً ان اراك . واني لعارف برك وتقواك فارجو منك ان تتوسل الى الله العلي وتصلي لاجلي » . فقال البطريرك : « انني رجل خاطىء يامولاي . ولكن فليعطك الرب مثل قلبك وحسب ايمانك ويتمم كل امالك ويؤيد عرشك الى الابد » .

فلما سمع القيصر هذا الجواب المتضمن كلام النبي داود في مزاميره سر وتخشع ونزل عن عرشهِ وقبل يمين البطريرك مرة ثانية . فقدم البطريرك للقيصر الهدايا التي حملها اليه . فشكر له أريحيتهُ

وقال العلامة المرحوم الشيخ ابراهيم الحوراني مرة للبطريرك انني نظمت ثمانية ابيات في مدحك كل بيت بديوان وسردها له ومنها :

لقبتَ (بالحداد) وفق المبتغى   فالبحر من اسمائهِ (الحدادُ)

فقال له البطريرك : « ياحوراني انواع القمح كثيرة ولكن افضلها وافخرها الحوراني »

وزار وهو في دير مار الياس شويا الاستاذ داود افندي قربان في الشوير لما كسر رجله . فلما رآهُ الاستاذ مقبلاً قال له . «يا سيدي لست مستاهلاً ان تدخل تحت سقفي» فاجابه البطريرك من فوره : «الى بيت داود نذهب . من منا العامي او الخوري او المطران او البطرك يستغني عن القربان»

وكان يخطب مرة في يوبيل المطبعة الاميركية المئوي في بيروت وبيده الانجيل المقدس فعند رفعه الانجيل بيده اطفئت الكهرباء دون قصد فقال من فوره :

«لا غرو اذا انطفأت الانوار الكهربائية فعند ظهور نور الله ينطفئ كل نور مادّي»

ودخل عليه مرة كاهن رث الثياب والقلنسوة زري المنظر فاشمأز من رؤيته وادخله حالاً الى غرفتهِ وخلع جبته وقلنسوته وحذاءه واعطاهُ اياها مع بعض دراهم وصرفهُ واوصاهُ ان يحافظ على كهنوتهِ لانهُ نقي فيجب ان يكون لباسهُ نقياً مراعاةً للمنظر واستجلاباً لاحترام الناس له

وكنت مرة في حضرته وعنده رجل يتحذلق ويبرهن له ان بني (الدباس) اصلهم بنو (البباز) وهي كلمة تركية بمعنى الكاهن . فبعد ان تشدّق ذلك الرجل وتعطق مؤيداً آراءهُ باقوال سخيفة والفقيد يحتمله . ضجر منهُ اخيراً والتفت الي رحمهُ الله وقال لي : «يا بنيّ ألقلة الدبس والمآكل والحلويات عندنا نحتاج الى هذه التمحلات والتوجيهات السفسطائية ؟ الم يمرّ بك في تاريخ الاسر الشرقية عشرات من الاسر المسماة باسم الدبس والدبسي والدباس وسكر وسكريه وسكيكر وعسلي وعسيلي وعسال وحلو وحلوه وحلاوه واشباهها ... ومع ذلك افليس هناك اسر تسمي باسم (باباز اوغلي) اي ابن الخوري . و (بابا دوبولس) . و (كوهين) فاقنع صاحبنا اذا ليترك هذه السخافات ويعتمد على التمحيص والتحقيق والعمل بما يوافق العقل والعادات»

وكان الدكتور وبستر الاميركي في اول امره قسيساً ثم صار طبيباً فكان كلما

زار البطريرك في المستشفى البيروتي الاميركي على اثر العملية الجراحية في عينيه او في مصيفه بحمدون بعد انهاء العملية يعود متعجباً مما يراه في الفقيد من التسليم لله والصبر الحقيقي وحسن الاخلاق وسعة الصدر وجميل الاقوال الدرية فيقول لمن حوله :

« انني كنت الآن عند مهذبي ومعلمي الروحي البطريرك غريغوريوس»

وزرتهُ في المستشفى بعد قدح عينه وقد جلل وجههُ بوشاح اسود لمنع النور عنهُ فكنت اسليه ببعض كلمات . فقال لي مرة : « اشكر الله انني لبست من صغري السواد رمز الموت فبقي وجهي وعيناي غير مسوَّدين فشاركا الآن جميع اعضاء الجسد ليتمتع هذا الجسم الفاني كله برمز الموت الحقيقي الذي هو شعار الاكليروس وذلك لان ساعة الموت قد دنت فلتكن مشيئة الله » فخرجت من امامه وبكيت في غرفة ثانية قائلاً ان جميع حنوّهِ وذكائهِ كان مجتمعاً في عينيه الجميلتين فحرمتا نورهما وحرمنا تلك النظرات المؤثرات بنا رحمةً وحناناً

ولما كان مصطافاً في بحمدون قبل وفاتهِ بقليل زارهُ كثيرون وعادوا من عنده متعجبين من جلدهِ وايمانهِ ونشاطهِ وثباتهِ وحسن عظاتهِ اذ لم يؤثر فيه فقد بصره والبصر من اهم الضروريات للحياة فكأنهُ كان يقول لهم بلسان الشاعر :

تنكّر لي دهري ولم يدرِ انني ... صبورٌ وعندي الحادثات تهونُ
فبات يريني الخطب كيف اشتدادهُ ... وبت اريه الصبر كيف يكونُ

ولما كان اخيراً مريضاً في دير القديس جاورجيوس في سوق الغرب وهو في غرفة تقابل الغرفة التي نذرهُ ابواهُ وهو صغير فنصَّراهُ بها كان يتسلى بهذه الذكرى ولما شعر بدنوّ اجله التفت الى السيد ارسانيوس الحداد مطران اللاذقية وقال : « يا اخي . انا مريض الان اجمع المطارنة وتمم ما بدأنا بهِ » واغمي عليه . وبعد افاقتهِ قال محتضراً لمن حوله : « انا صبرت حتى النهاية » ثم اسلم روحه الطاهرة بين يدي خالقهِ . ولسان حال العارفين لفضله وفضيلتهِ يقول :

بكيتك (سيدي) بدموع عيني	فما اغنى البكاء عليك شيئًا
وكانت في حياتك لي عظات	فانت اليوم اوعظ منك حيًّا

مراثيه

لم تبقَ صحيفة في الوطن والمهجر عربية او اعجمية على اختلاف مذاهبها ومشاربها الا ونعتهُ معددةً ماثره وكذلك تبارى الخطباء والشعراء والكتاب برثائهِ وتوفيته حقهِ من التابين واقيمت له الحفلات المهمة في جميع الجهات فاشترك الناس في الحزن عليه وذكر مكارم اخلاقهِ وطيب اعراقهِ ومنزلتهِ العليا مما لم يسبق لغيره مثل هذه العواطف العامة التي شوركت بها الطائفة الاثوذكسية وبنوها ولاسيما الصحف اليونانية مثل مجلة انابلسيس (اثينة) وارثوذكسية (لسان البطريركية القسطنطينية) وباندينوس (لسان حال بطريركية الاسكندرية) ونياصيون (لسان حال بطريركية اورشليم) وغيرها من جرائد ومجلات فقد نشرت رسمه وترجمته واعماله مظهرة اسفها لفقدهِ . وهكذا بقية الصحف الارثوذكسية الروسية والبولونية والرومانية واليونانية وغيرها مما لامحل لنقل اقوالها ومراثي الشعراء وتآبين الادباء مجتزئين بالقليل عن الكثير :

فمن مراثيه قول جامع هذه الترجمة عيسى اسكندر المعلوف من تابين ارسله ليتلى في حفلة الاربعين التي اعلن اقامتها ولم تقم[1] :

فجع الورى والدين والعبَّادُ	وهوى من العلم الرفيع عمادُ
بكت الكنائس والمدارس حبرها	والفضل والآداب والاسعادُ
وبكى الفقير ملاذه ودموعه الحمـ	ـرا لتسطير الرثاء مدادُ
والاهل والابناء عزَّ عزاؤهم	اذ ليس للحزن الاليم نفادُ
غرغوريوس راعي الرعاة امامنا	حبر الهدى بحر الندى المعضادُ

---

(١) اعددت تأبيناً للفقيد يوم نقله الى دمشق بعنوان (عرفتك وقرأت عنك وسمعت عنك) فصدعت رجلي على الطريق وتركت ساعات وحدي حتى ردت الى مثتاي بجونيه . ثم ارسلت التأبين لحفلة الاربعين فضاع هناك

علاّمة بحاثّة فهاّمة لجميع آثار التقى مرتادُ
آراؤهُ وصفاتهُ وعلومهُ جاتْ وجل بهِ لهنّ سدادُ
رقيت منابرنا لناجع وعظه فذوى الضلال وازهرتْ اعوادُ
ابكى اليراع فاضحك القرطاس في ما خطهُ آياً لها تردادُ
مالي اراهُ صامتاً فبصمتهِ وعظ يلين لمن وعاهُ جمادُ
ورقاده قد اوقظ الاشجان في قلب الجميع فليس ثمَّ رقادُ
فاليوم ربُّ التاج نال جزاءهُ دار النعيم تحفها الاجنادُ
تذكارهُ لمؤرخيهِ خالدٌ راعي الرعاة البطركُ الحدادُ

٦٣٥ ٢٨١ ٧٠٢ ٢٦٢ ٤٨ = ١٩٢٨

وقوله تاريخاً لضريحه :

قضى غريغوريوس حدّاد بطركنا ربُّ الفضيلة سامي العلم والعمل
زهت (طرابلس) في عهده وعلت (كفتين) شأناً له التذكار لم يزل
وساس سدَّة (انطاكية) زمناً بعزمهِ غير هياب ولا وكلِ
ففجع الدين والاهلين مصرعهُ وشاركتهم بحزن سائر الملل
تبكي الرعية حبراً كان ملجأها يعدُ من اولياء الله والرسل
تبكي كنائسها تبكي مدارسها تبكي مجالسها بالغم والوجل
ترثي منابرها من كان يسحرها بدر نظم ونثرٍ مضرب المثلِ
تبكي محافلها ترثي اراملها يبكي الفقير اباهُ شافي العللِ
فللخلائق نوح بعد فرقتهِ شقَّ القلوب وادمى محجر المقلِ
وللملائك في تاريخهِ زجلٌ راعي الرعاة سما في دارة الحملِ

٤٠ ٢٨١ ٧٠٢ ١٠١ ٩٠ ٥ ٦٥ ١٠٦

سنة ١٩٢٨

وقول قيصر بك المعلوف ابن عمي جامع هذه الترجمة :

نكسوا البيض واخنقوا الاعلاما   قد نعى الفضل للمعالي الاماما
كوكب الشرق غيبتهُ المنايا   فخبا النور واستحال ظلاما
ايه لبنان فالمصاب جليل   اقعد الكون وقعهُ واقاما
وعدا البرق راشقاً منهُ في الغرب — بقلب المهاجرين سهاما
صخبة الحزن والعويل عليهِ   زادتِ الجرح دامياً إيلاما
تسمع الاذن من (نيورك) عويلاً   ذرفته (سانبول) دمعاً سجاما
(وبمسكو) حيث الشيوع لمسنا   في بنيها تحت الرماد ضراما

. . . .

ألبس الحزن ثوبه كل صقعٍ   واخص السواد منه الشآما
فتراها وشيخها وفتاها   ونساها مجلببين القتاما
فيعزي الاسلام فيها النصارى   ويعزي يهودها الاسلاما
ليس بدعاً ان وحد الخطب فيه   قبل ان مات وحّد الارقاما

. . . .

يا عظيماً في العيش والموت رفقاً   بشعوب تركتهم ايتاما
كنت غوث الفقير تحنو عليهِ   وملاذ المفجعين الايامى
جدت بالمال للفقير ولم تبخل   بنفس لو ان تكون حطاما
فسلام عليك في جنة الخلد   مقيماً حيث المسيح اقاما

وقول فوزي افندي المعلوف نجل كاتب هذه الترجمة نزيل البرازيل في حفلة تأبينية اقيمت هناك :

بلد مشى بسهوله وجبالهِ   متدفقاً بنسائه ورجالهِ
وشي لياليه بريق دموعه   وسرى الاسى لهباً على آصالهِ

فالمس لظى البركان في (صدّينه)   واسمع انين اليأس من (شلاله)

واذا مشى وهو المفجع بابنه   أكبر أساه ولا تسل عن حاله

في موكب لجب بحشد جموعه   (لبنان) ضاق على رحيب مجاله

يا للفجيعة فاض شاطئه بها   فطمت على وديانه وجباله

بحر بباب (الشام) عج فسارعت   من (جلق) الانهار لاستقباله

فانظر الى الجارين شعباً واحداً   متعانقاً (بصليبه) و (هلاله)

لا (حزب) يفصله ولا (دين) فقد   ضمّ الاسى ما انشق من امياله

من عاش وهو يلم شمل بلاده   أليوم لمّ الشمل بعد زواله

. . . .

هو موكب كالسيل لولا انهُ   متمهل والصمت كل مقاله

فكأنهُ متعثرٌ بدموعه   او أنه يمشي على آماله

تستوقف الانفاس فيه مهابة   بكماء روّعها الرّدى بخياله

لأنين (اجراس الكنائس) حولها   موج تغور الروح في سياله

وهناك نعش في القلوب (سواده)   فكأنما فيها محط رحاله

وعليه (حبر) في ملابس (راهب)   بكت (العمائم) منه غر خصاله

يحتاطهُ (وفد الشباب) مودعاً   في (شيخ) نهضته (فتى) استقلاله

فيخاله في صمته متكلماً   يلقي عليه السحر من اقواله

ونرى وراء النعش شعباً خاشعاً   متبركاً منه بلمس ظلاله

نكس السلاح حماتهُ لما هوى   حامي السلاح شهيد طول نضاله

. . . .

فمن المسجى غارقاً بسباته   في النعش يغمره بفيض جلاله

وعليه من نور القداسة هالة   ذرّاتها البيضاء بيض فعاله

نور برغم الموت شعَّ حيالهُ — متموجاً بخيوطه وحبالهِ
ومذهباً ما ابيض من اكفانه — ومفضضاً ما اسودّ من سرباله
ويمينه ممدودة فكأنها — بسطت لآخر مرة بنوالهِ
تلك اليمين جثا لديها عاهلٌ — كانت رقاب الناس طوع شمالهِ
وترى على شفتيه بسمة راحةٍ — هي بسمة المفكوك من اغلالهِ
او بسمة المصلوب حاملة على — شفتيه آي الصفح عن مغتالهِ

. . . .

«رجل فحسب» وتلك خير مقالةٍ — في وصفهِ تدعو الى اجلالهِ
في موطن قل الرجال به . وما — برح الحمام يزيد في اقلالهِ
لو كان عاصرهُ حكيمُ اثينةٍ [1] — ما احتاج للمصباح في تجوالهِ

. . . .

المطعم الطاوين جلَّ طعامه — والواهب البؤساء باقيَ مالهِ
لا اطلب الرحمات من ربي لهُ — فانا على ثقةٍ بحسن مآلهِ
فالخلق كلهم عيال الله اقر — بهم اليه ابرهم بعيالهِ

---

(١) هوديوجنس الذي كان يجوب شوارع اثينة في رائعة النهار حاملاً بيده مصباحاً . ولما سئل عن سبب حمله اجاب : « اني افتش عن رجل »

وليكن مسك الختام النشيد المؤثر الذي نظمهُ ولحنهُ صديقنا تلميذ مدرسة كفتين الموسيقي النابغة (متري افندي المرّ) في حفلة جنازة الفقيد في بيروت وهو هذا الموشح الرقيق :

مات ربُّ البيان مات ربُّ الذكاء
عسجدي اللسان حاتميُّ السخاء
ثلَّ عرش الدين واحسرتاه علم الشرق ينطوي في رباه
ماد لبنان للفجيعة حزناً ودجت سوريا لفقد سناه
ايُّ خطب اصاب قلبنا للمصاب
فاندبي يا سماء صرعى اساه

. . . .

انتحب ياوطن واندبي يا بلاد
علماً في علن سيداً في سداد
مثلاً في ثباتهِ والوفاء في ندى في طهارةٍ وولاء
من مجير الفقير بعد ابيهِ من نصير اليتيم والبؤساء
من لقلبي الكليم بعد فقد الكليم
هيبة الله زينة الرؤساء

. . . .

هل لفضل شروق في غياب ذكاء
هل لدين خفوق بعد طيِّ اللواء
كيف ركن المنابر الالمعيُّ ؟ كيف قسّ الفصاحة العبقري
كيف بحرٌ للعلم يلقى بنعشٍ ؟ كيف يثوي في الترب بدرٌ سنيُّ ؟
يا غريغوريوس سر ومعك النفوس
ضمك السعدُ والبقاء الهنيُّ

الختام

هذا ما تمثل للذهن عن فقيد الشرق والانسانية المطوب الذكر الذي ارتجت لمنعاه اصقاع الشرق والغرب ووفته حقه من الوصف والتأبين الصحف والخطباء والكتاب والشعراء بمقالات مؤثرة مكبرين الخطب به وآسفين لغياب بدره بعد الاكتمال وهو ينجز اعمال المجمع الاخير . وينظر في حاجات الطائفة . ويرجو ان يرى من الاساقفة والاعيان معاضدة له في رفع شأنها واعلاء منار الفضيلة والفضل فيها . فكسف الموت شمسه الساطعة وهو احد الاقمار الثلاثة الذين اناروا الكنيسة بتعاليمهم المفيدة . ونشروا الوية السلام بين الناس ورصعوا المنابر بدرر اقوالهم . وجلوا المشاكل بصائب ارائهم . فهو الذي مثل بكمالاته الانسانية مجدَي صنويهِ الجليلين فكأن البحتري عناهُ بقوله :

فلو ان مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى اليك المنبرُ

ابديت من فصل الخطاب بحكمة تنبي عن الحق المبين وتخبرُ

وهو الذي واسى المعوزين وعضد المنكوبين وسلى الحزانى وجبر قلوب البؤساء المنكسرة فكان كما قال ابو تمام :

وما كان الامال من قل ماله وذخراً لمن امسى وليس له ذخرُ

وما كان يدري مجتدي جود كفهِ اذاما استهلت انهُ خلق العسرُ

وهو بحنانه ورحمتهِ الذي عنتهُ مدام دي ستايل الفرنسية بقولها : « ان الرئاسة الحقيقية هي التي تولد في نفس الرئيس الكامل الرحمة الكاملة بمرؤوسيه »

فما القول بهِ وكان رحيماً ايضاً لغير مرؤوسيه على اختلاف مذاهبهم ومواطنهم ومشاربهم

وهو الذي نطق بلسانهِ شاعر مصر الكبير المأسوف عليه محمود سامي باشا البارودي عند ما قال من قصيدة يصف بها نفسهُ :

راجعت فهرس آثاري فما لمحت بصيرتي فيه ما يزري باعمالي
فكيف ينكر قومي فضل بادرتي وقد نسرت حكمي فيهم وامثالي

بل هو الذي لم يغير من اخلاقهِ ما ناله في حياته من التكريم في وطنه وفي سفره الى روسية. فقد احتفل بغبطته في روسية في ٢٠ شباط سنة١٩١٣ اعظم عدد ارثوذكسي يمكن ان يحتفل باعظم رجل في العالم . . والبسوه حلة في احتفالاتهم اعدت له خاصة كان ثمنها خمساً وعشرين الف ليرة ذهبية . واستقبلوه استقبالات لم ينلها الملوك. وانحنى امامه اعظم قيصر لاعظم امة يقبل يده . ونال اوسمة لم ينلها غيره . فلم يشمخ بانفهِ ولا افتخر بكلمة امام احد . بل بقي على تواضعه ورصانته لا يهمه مدح مادح ولا قدح قادح بل كان يتمثل بقول الشاعر العربي في كل ادوار حياتهِ :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً علي لئامها

رحمهُ الله عداد حسناتهِ وجزى خيراً كل من وفاه حقهحياً وميتاً بمنه وكرمهِ

